رثاء الأم

في

الأدب العربي الحديث

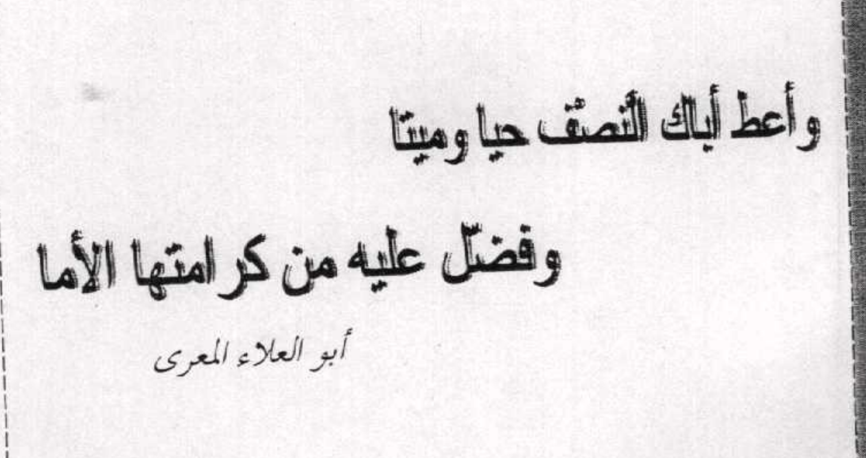
دكتور
عبد الناصر محمد السعيد
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

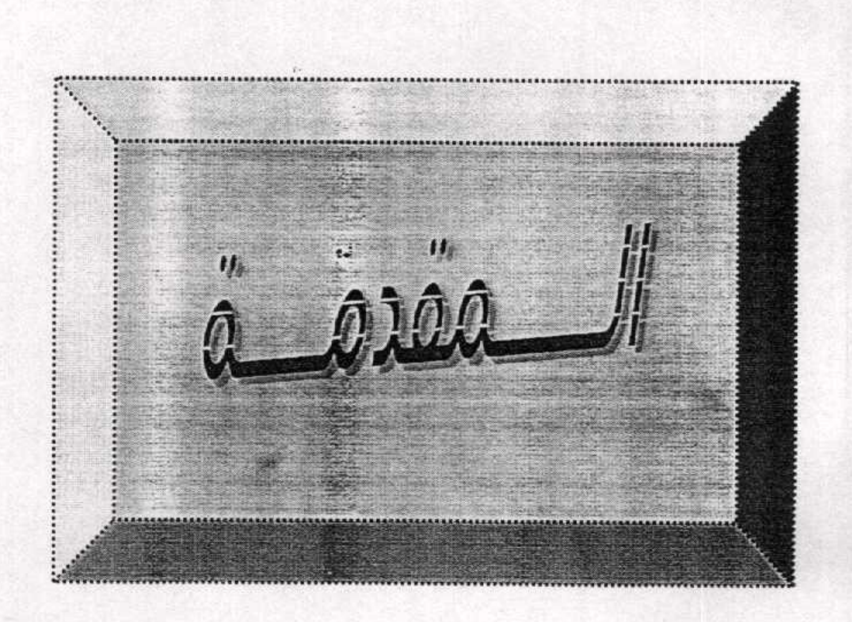
طبعة ٢٠٠٠ م

فأى امرئ ساوى بأم حليلة

فلا عاش إلا فى شقى وهوان

صخر بن عمرو بن الشريد


وأعط أباك النصف حيا وميتا
وفضل عليه من كرامتها الأما
أبو العلاء المعرى


المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله صلـى الله عليه وسـلم ..

وبعـــد:-

ففى المكتبة الأدبية، كتيـب صغـير تحـت عنـوان "الأم فى أدبنـا العـربى" لفتحى الإبيارى، الدار القومية للطباعة والنشـر، تحـدث فيـه عـن الأم فى الأدب العربى قائلاً : "ويخيل إلى أنه بالرغم من تلك القسوة الظـاهرة فى مجتمـع العـرب فى الجاهلية بالنسبة للمرأة، إلا أن قيثارة الشعراء العـرب،كـانت تفضـح مـا فى أعماقهم من رقة وحنان بالنسبة للمرأة، فقصائدهم مليئـة بلوعـة الحـب والغـزل والشوق والهيام، والسهد والغرام. ومع كـل هـذا، فلـم يـترنم أحـد بأمـه فى قصيدة كاملة. وفى إمكاننا أن نمر بعدد كبير مـن الشـعراء، حـتى نصـل إلى أبى الطيب المتنبى , فنجده يذكر الأم فى قصيدته التى رثى بهـا جدتـه لأمـه، فـهو لم يذكر الأم إلا بمناسبة الموت، وكذلك الحـال فى شـوقى"[1]

شـغلنى موضـوع الأم فى الأدب العـربى، وخاصـة رثـاء الأم فى العصـر

الحديث عن رثاء هذا الشاعر لأمه، ومعارضته لشـــاعر آخـــر. والأمثلـــة عديـــدة، منها ما ذكره الأستاذ الدكتور طه أبو كريشة فى كتابـــه "فى مـــيزان النقـــد الأدبى" سنه ١٩٧٦م القاهرة،عندما تحدث عـــن قصيـــدة أبى فـــراس الحمـــدانى فى رثـــاء أمه، ومنها ما ذكره الأستاذ الدكتـــور إبراهيـــم عوضـــين فى كتابـــه "المعارضـــة فى شعر شوقى" سنه ١٩٨٢م عندما وازن بين المتنـــبى وشـــوقى.

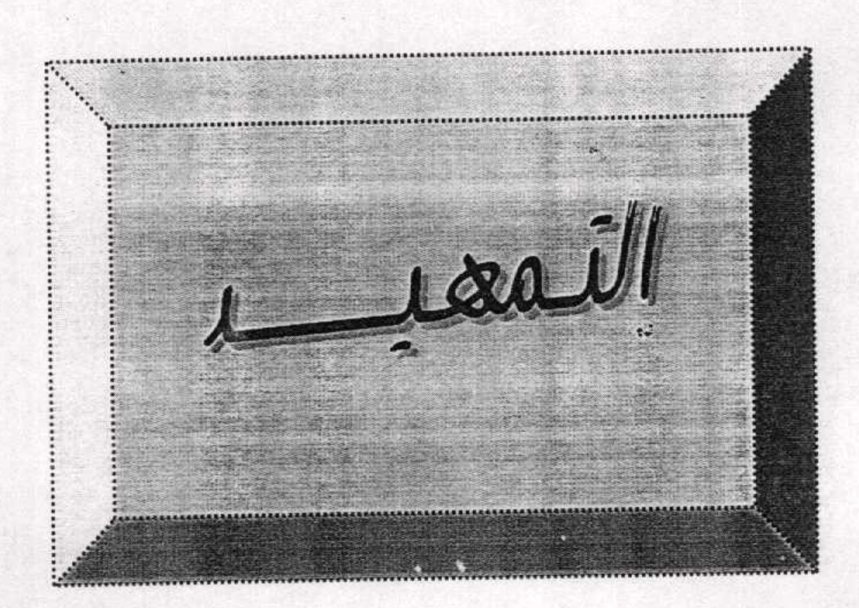
ومن ثم فقد رحت – مستعيناً بالله عز وجـــل – أتتبـــع رثـــاء الأم فى أدبنـــا العربى الحديث، وقد مهدت لهذه الدراسة بالحديث عن رثـــاء الأم عنـــد الشـــعراء قبل هذه المرحلـــة، ثم جـــاءت الدراســـة فى فصلـــين، أولهمـــا يختـــص بالدراســـة الموضوعية، وما تناوله الشعراء فى قصيـــدة الرثـــاء، وثانيـــهما تنـــاول بالدراســـة الفنية قصيدة الرثـــاء. وتحـــدث عـــن أخـــص خصائصـــها. ثم كـــانت خاتمـــة الدراســـة.

والله أسأل أن ينفع به، ويتجاوز عن التقصير،

آمين

دكتور

عبد الناصر محمد السعيد


التمهيد

تمهيـــــد

حظيت الأم فى القديم والحديث بالعناية والرعاية من فحول الشـــعراء والأدباء، ولهم قصائد فى الأم، فى حياتها وبعد مماتها، تعكس لنا وتصـــور كيف، كانت الأم تشكل حياتهم وتصيغ عالمهم.

وأول ما يطالعنا من تلك المواقف ، تلك الأبيات التى قالها صخر بـن عمر بن الشريد عندما مرض قريبا من حولٍ حتى ملّه أهله ، فسمع صخر امرأة ، وهى تسأل سلمى امرأته : كيف بعلك؟ فقالت سلمى :- لا حـــىّ فيرجى ، ولا ميت فينعى ، لقينا منه الأمرّين. وعلى الجانب الآخر تجيب *الأم : بأحسن حال ما كان منذ اشتكى خيرا منه اليوم. ولا نزال بخير مـا رأينا سواده فينا، وينطلق صخر معبراً عن هذين الموقفين المتناقضين:-*

أرى أم صخر لا تمـــلّ عيـــادتى — ومّلت سليمى مضجعـــى ومكــــانى
وما كنت أخشى أن أكون جنــــازة — عليك ومن يغتر بالحدثــــــــان ؟
أهم بأمر الحزم لـــو أســـتطيعه — وقد حيل بين العيــــر والنـــزوان
لعمرى لقد نبهت من كـــان نائمــا — وأسمعت من كانت لــــــه أذنـــان
وللموت خير من حياة كـــــأنها — معرس يعسوب بـــرأس سنــــــان
وأى امرئ ساوى بأم حليلـــــــة — فلا عاش إلا فى شـــقا وهـــوان(١)

(١) ديوان الخنساء صـــ ٨٥ تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين ، الطبعة الأولى ، مطبعـــة الســعادة ، ١٩٨٦م والأغـــانى حـــ١٥ صـــ ٧٨ طبعة دار العودة-بيروت والشعر والشعراء : ابن قتيبة صـــ ٣٥٢ تحقيق محمد شاكر

وهذه الكلمات وتلك الأبيات من هذا الشاعر ، تشغل البدايات الأولـــى التى تلمع فيها صورة الأم ، وتجعلنا نقف بحذر أمام تلـك المقولــة التـى تجرد الشعر العربى من هذه اللمحات وذلك حين تقول [ويخيل إلـــى أنــه بالرغم من تلك القسوة الظاهرة فى مجتمع العرب فى الجاهليـــة بالنسـبة للمرأة ، إلا أن قيثارة الشعراء العرب كانت تفضح ما فى أعماقهم من رقة وحنان بالنسبة للمرأة ، فقصائدهم مليئة بلوعة الحب و الغزل و الشـوق و الهيام و السهد و الغرام ، و مع كل هذا فلم يترنم أحد منهم بأمه فى قصيدة كاملة.

وفى إمكاننا أن نمر سريعاً بعدد كبير من الشعراء حتى نصـل إلـى أبى الطيب المتنبى فنجده يذكر الأم فى قصيدته التـى رثـى بـها جدته لأمه..][1]

وليست بدايات الرثاء للأم عند المتنبى ، و إنما نستطيع أن نتوقـف أولاً عند ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ، وبعده الصنوبرى المتوفـى سنة ٣٥٤ هـ . هذا من ناحية ،ونستطيع أن نتوقف عنـد قصـائد أبـى فراس التى أرسل بها إلى أمه ، والتى لم تكن من الرثاء فى شـئ ، ممـا يدحض المقولة السابقة التى تقول بأن الشعر لم يتحدث عـن الأم إلا فـى الرثاء ، وكان ابتداء ذلك عند المتنبى.

(١) الأم فى الأدب : فتحى الإبيارى صـ ٢٤ ، الدار القومية للطباعة والنشر

كما أننا عندما نتحدث عن ابن الرومى فى رثاء أمـــه ، نحـــاول أن نصحح المقولة القائلة بأن الصنوبرى هو أول من ساق قصيدة رثـــاء فـــى أمه (٠٠ لقد كان الصنوبرى من أقدم الشعراء الذين رثوا أمهاتهم إن لــــم يكن أقدمهم٠٠٠)(١)

ابن الرومى :

وقصيدة ابن الرومى فى رثاء أمه وهى من أطول قصائد الرثـاء ، إذ أنها تطول حتى تصل إلى مائتين وخمسة أبيات ، وهى قصيدة ميمية مـــن بحر الطويل قافيتها ساكنة ، يبدأها هذا الابن الملتاع بـــالحديث عـــن أثـــر الفاجعة على نفسه فيطلب من عينه أن تسعفه بالدموع بل بالدماء ، فليـــس كثيرا على من فقد أمه أن تجود عينه بالدماء ولا تستريح من البكـــاء ، ولا تميل إلى الكرى٠ لقد تقطع ما بينه وبين العيش من صلات ، فقـــد رمـــى ***بخطب يصعب على الجبال تحمله:-***

١-أفيضا دما إن الرزايا لها قيم فليس	كثـــيرا أن تجـــود لهـــا بـــدم
٢-ولا تستريحا مـــن بكـــاء إلى كـــرى	فلا حمد ما لم تســعدانى علـــى الســـأم
٣-ويا لذة العيش التى كنـــت أرتضـــى	تقطـــع مـــا بيـــنى وبينـــك فـــانصرم

---

(١) العصر العباسى الثانى، د٠ شوقى ضيف صـــ ٣٥٨ ٠ دار المعارف ، الطبعة السادسة٠

وواضح أن الشاعر هنا يدخل بنا مباشرة إلى تصوير حاله ، ويصلنـا رفضه للذات العيش ، ويلجأ إلى عينه طالباً منها إسـعافه بـالدموع بـل بالدماء ، ثم يعلن سبب ذلك ، فقد رمى بخطب جلل لا تتحمله الجبال، لقـد كان هذا الخطب الجلل وهو موت تلك الأم التى كـان يحيـا بروحـها ، ***ويستدفع بها البلوى ، ويستكشف الغُمم:-***

٤-رميت بخطب لا يقوم لمثله شـوورى	ولا رضوى ولا الهُضْب مـن خيـم
٥-بأنكر ذى ذكر واقطـع ذى شـبا	وامقر ذى طعم وأوخم ذى وخـم
٦-رزيئـة أم كنـت أحيـا بروحـها	وأستدفع البلوى واستكشف الغمـم

قضية جديرة بالمناقشة:-

وفى قصيدة ابن الرومى التى بين أيدينا ، قضية جديرة بالمناقشـة ، وهى أن الشاعر بدأ قصيدته ببكاء هذه الأم فى أربعة وعشرين بيتا ، ثـم ترك بكاء الأم ولجأ الى سوق القصص ، فقد بدأ الشاعر حديثه عن الدهـر والمواعظ ، ثم ساق قصصا للتسلية ، وساق نماذج كثيرة لم تبـق رغـم ***منعتها وعزّتها ، ولم تصمد أمام الدهر ، وهو يصرح بقوله :-***

"أرى الدهر لا يبقى على حدثانه" ، وهذا المطلع يذكرنا بقصيدة أبـى ذؤيب فى رثاء أولاده، عندما ساق قصصا ليسلو بها عن الفجيعـة. كـان

مطلع هذا القصص "الدهر لا يبقى على حدثانه" . على أن ابا ذؤيب قد بـدأ قصيدته بالتفجع ، ثم ساق هذا القصص ليسلو ،وينسى [(١)]

ولكن ابن الرومى يسوق هذا القصص من بدايـــــة البيــت الخـــامس والعشرين ، إلى البيت الخامس والثلاثين والمائة ، أى أنه ساق قصصا فى مائة وعشرة من الأبيات:-

أرى الدهر لا يبقى علــى حدثانــه	شعيب الأعالى جـــهورى إذا بغـــم

ثم يسوق القصة .

ولا نقنق خاظى البضيع صمحمـــح	من الأكلات النار تأتج فى الفحـــم

ثم يسوق القصة .

والمفترض أنه سلا بعد ذلك . ولكننا بعد هذا الكم الهائل من الأبيـــات نجد الشاعر يعود إلى البكاء والتفجع على أمه تفجعا مرًّا آسرا ، وشـــجوا باكيا ، ونغما حزينا .

١٣٦- أحاملتى : أصبحت حمالا لحفــرة	إذا حملت يوما فليس لها قتـــــــر
١٣٧-أحاملتى : أستحمل الله روحـــة	إلى تلكم الروح الزكية والنســـــم
١٣٨-أمر صفتى: أسترضع الغيـــثُ درّة	لرمسك بل استغزر الدمع ما ســجم

الاغانى حـــ ٦ صـــ٢٧٤، دار العودة بيروت مصورة عن مطبعة دار الكتب

ويستمر ابن الرومى فى رثاء والدته فى تسعة وستين بيتـا لا تخمـد فيها عاطفته ، فهو يخاطب والدته بأنه سيحرم نفسه من النعيـم والابتسـام *والمرح، وكيف يمرح فوق الأرض ، وقد هيل التراب على تلك الأم:-*

أأمرح فوق الأرض يا أم والـــثرى عليـــك مهيل قد تطابق وارتكـم ؟

إنه لعزيز على نفسه أن يعيش وقد ماتت أمه ، ولكنه حكم المـــوت، *ولو قبل هذا الموت الفداء لبذله:-*

عزيـــز علينـــا أن تموتـــى وأننـــا نعيش ولكن حُكّم الموت فـــاحتكم
ولو قبلَ المـــوت الفـــداء بذلتـــه ولكنمـــا يعتـــام رائـــده الصيـــم

ثم يعود إلى تصوير حاله ، فهو سيبكى بمنثور الدمع تارة ، وبمنظوم الشعر تارة أخرى٠ ولو نظرت الأم إلى حاله بعـــد موتـــها ورأت ألمـــه *لعرفت أن داهيته أشد ومصيبته أعظم:-*

ولو نظرت عينـــاك يـــا أم نظـــرة إلى ما توارى عنك مـــنى واكتتـــم
فقست بما ألقـــاه مـــا قـــد لقيتـــه شهدت بحـــق أن داهيـــتى أطـــم

لقد صار لا يستحسن شيئا يراه ، ويستهجن كل ما يسمع مـــن نغـم وطرب ، وأصبحت الآمال والأمانى غادرة ، وفارق الخـــلان ، وصـــار يأنس إلى الوحدة ، إنه يسمع كلمات الغزل فلا يطيب خاطره ، ولا تـــهدأ نفسه ، كيف وقد أورثه فقد الأم وقدة فى القلب كالنار فى الضرم ، وكلّمـــا

لا يبرئه غير الله • هو الواهب السلوان ، لقد أظلمـــت النفـــوس بعقدهـــا ، *وابيضت اللمم ، وأظلمت الدنيا وأجدبت الأرض:-*

ومادت لك الأجبال حـــتى كأنمـــا شواهقها كانت بَمحْيـــاك تُدَّعـــم

وصار السحاب باكيا ، وناحت عليك الريح:-

وقامت عليك الجـــن والإنـــس مأتمـــا تبكى صلاة الليل والخمص والهضـم(١)
وأضحت عليك الوحش والطير ولهـــا تبكى الرواء النضر والمخـــبر العمـــم

ومع هذه المشاركة من الكون كله بأنسه وجنّـــه وســـحابه ورياحـــه ووحشه وطيره حزن على هذه الأم ، فإن السموات العلى تغمرها الســـعادة مستبشرة بروح هذه الأم •

ومادت لك الأجبال حـــتى كأنمـــا شواهقها كانت بَمحْيـــاك تُدَّعـــم
وأما السموات العلـــى فتباشـــرت بروحك لما ضمّها ذلـــك المَضَـــم

ويصف هذه الأم بأنها صوامة قوامة:-

لقد فجعت منك الليالى نفوســـها بمحيية الأســـحار حافظـــة القيـــم
ولم تخطىء الأيـــام فيـــك فجيعـــة بصوّامـــة فيـــهن طيّبـــة الطعّـــم
وفات بك الأيتام حصـــــن كِنافـــةٍ دفء عليهم ليلـــة القُـــرّ والشّـــتم
رجعنـــا وأفردنـــاك غـــير فريـــدة من البر والمعروف والخير والكـــرم

(١) أشار المحقق فى الهامش إلى أن النسخة (ع) فيها "أقامت" وعلق بقوله "وهى جيدة"

ثم يختم قصيدته بالدعاء لهذه الأم بأنس المحل ووابل الديم:-

٢٠٣-فلا تعدمى أنس المحل فطالمـــا	عكفت وآنست المحاريب فى الظلم
٢٠٤-كست قبرك القر المباكير حلـة	مفتوحة من صفة الوبـــل والـــديم
٢٠٥-لها أرج بعـــد الرقـــاد كأنمـــا	يحدث عما فيك مـــن طيّـــب(٢)

أما عن طول القصيدة، فقد لفت نظر الدكتور طه حسين، وقال عـــن ذلك إنه (٠٠شاعر مطيل ومطيـــل جـــداً يبلـــغ بقصيدتـــه المئـــات مـــن الأبيات٠٠)[1] وهذه حقيقة تمثلت فى كثير من قصائده وليس فـــى قصيـــدة الرثاء فقط. ولكن القضية التى تلفت النظر وتشغل الذهن هى ما لاحظنـــاه من سوق القصص بعد رثاء أمه،ثم العودة إلى الرثاء والرثاء الحاد، الدامع المفجع لهذه الأم بعد هذا القصص الطويل٠

الصنوبرى(٢) :-

يطالعنا صوت الصنوبرى فى رثاء أمه بعد صوت ابن الرومى، وقـد مرضت أم الشاعر مرضا شديدا، وذبل عودها وجفّ هـــذا العـــود حتـــى ماتت٠ ولذلك فنحن مع شاعر لا يواجه مرارة الموت بقـــدر مـــا يواجـــه

ديوان ابن الرومى : تحقيق د حسين نصار ٠ الجزء السادس صـــ ٢٢٩٩

(١) من حديث الشعر والنثر د طه حسين٠ صـــ١٣٤ دار المعارف الطبعة العاشرة

(٢) أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصنوبرى٠ ترجم له ياقوت فى معجم البلدان عن حديثه عن(حلب) وهو من شـعراء العصر العباسى الثانى وتوفى سنة ٣٣٤ هـــ

مرض الأم ومعاناتها وأناتها وما كانت تحدثه تلك الأنات فى نفس الشاعر، وظل هذا الحال حتى ماتت، ولذلك يبدأ الشاعر قصيدته بتلك اللفظة (صوحت) ، قد صوحت روضتى ،ذبلت وجفت تلك الروضة. ويالها من جملة تقريرية أوجع فى النفس وآلم فى القلب من آلاف الاستعارات

قد صوحت روضتى المونقة	وانتزعت روحى المورقة
باب إلى الجنة ودعته	مذ رأيت الموت قد أغلقه
لا يبعدن مثواك يا أم ما	أبعد مثواك وما أسحقه
قد صدق الموت الذى لم أزل	أحذره فيك وقد حققه
يقلق أحشائى مضجعى	تذكرى أحشاءك المقلقة
وحملك السقم وأعباءه	فى جسد أضعف من بروقة(١)
لله أم ماينى حزنها	مجددا أحزانى المخلقة

والشاعر هنا يشير من بداية القصيدة إلى تلك الأم وقد صوح نبتها بعد أن كان روضة غناء، وهو يرسم صورة لأمه بعد أن هدها وأسقمها المرض وصدق الموت ما كان يحذره الابن كل يوم، ومن هنا عاد الشاعر سريعا بعد أربعة أبيات إلى تذكر تلك الأم ومعاناتها للآلام، فقد حملت ***الأسقام فى جسدها الضعيف وراحت تئن وتتوجع:-***

---

(١) البروق: شجر ضعيف له ثمر. لسان العرب مادة برق

كـــم أودعـــت أذني مـــن أنــــــة	تـــودع قلـــبي جمــــرة محرقــــة
ومـــن تشــك كنــت أولى بــــه	أســــهمه في كبـــــدي مطلقــــة
قول والأنفـــاس قـــد صـــاعدت	في الصدر منـــها وهـــي كالمطرقــة
باللمنايـــا كيـــف أنجــــو بهـــا	مـــن كربهـــا وهـــي بهـــا محدقــة
مـــن تتحـــامى أن تـــرى ظلمــــة	أســـكنتها في ظلمـــــة مطبقـــــة
ومـــن تضيـــق الأرض في عينــــها	أهديتـــها للحفـــــرة الضيـــــق

لقد أضناه ما أضناها، وأسقمه الذى أسقمها، فشكايتها كانت سهاما فى كبده، وأنينها كان جمرا فى صدره، ثم يظهر عجزه أمـــام المـــوت فـــى استفسارات حائرة، كيف ينجو بها والمنايا محدقة؟ وكيف أسكنها فى ظلمـــة مطبقة، وقد كانت تتحامى أن ترى الظلام؟ ومن تضيق الأرض فى عينها، كيف أهداها إلى تلك الحفرة الضيقة؟ ثم يختم قصيدته بالدعاء بالسقيا لذلـــك *الثرى الذى ترقد فيه:-*

بكـــت ثـــرى أنـــت بـــه مزنـــة	عيونهـــا بـــــــالدمع مغرورقـــــة
ولا خـــلا مـــن زاهـــر مشــــرق	مبتسم عـــــن زهـــرة مشـــرقة(١)

المتنبى:-

نحن مع المتنبى فى هذه القصيدة نواجه بظـــروف عديـــدة،نواجـــه بالشاعر وعبقريته من ناحية، واعتزازه بنفسه وبفنه من ناحية أخرى ،وبأم

(١) ديوان الصنوبرى، تحقيق د/ إحسان عباس صـــ٤٤٢ دارالثقافة، بيروت لبنان سنة ١٩٧٠ م

ليست ككل الأمهات من ناحية ثالثة، فهى جدته التى ينتمى إليها أو تنتمى إليه، وهى كل أهله، وهو كل أهلها وكل شىء لها فى الحياة٠ والظروف التى ماتت فيها الجدة ظروف غير عادية، فقد يئست الجدة من طول غياب المتنبى، أصابها اليأس والقنوط، وفقدت كل أمل فى عودته، وفجأة وبعد طول غياب، وصلها منه كتاب، كان لها بمثابة الروح التى ردت إليها، وفرحت الجدة بهذا الكتاب فرحا شديدا ،وكم من فرح أعقب ترحا، لقد حمت الجدة لساعتها وماتت٠

تلك ظروف غير عادية أنشد فيها المتنبى قصيدته، وصور فجيعته، والمتنبى لم يذكر أمه فى ديوانه لا راضيا ولا ساخطا ولا مسرورا ولا مخزونا(١) ولم يرث المتنبى أحدا من أقاربه سوى جدته، وأما بقية مرثياته فقد كانت فى أشخاص لا يمتون إليه بصلة قرابة(٢)

لقد أرسلت الجدة إلى المتنبى كتابا تبثه فيه شوقها، وتشكو من طول غيابه عنها، فتوجه المتنبى نحو العراق، ولم يتمكن من دخول الكوفة، فتوجه إلى بغداد، وكتب إليها المسير إليه، وكان ما كان من شدة فرحها وموتها، وتألم المتنبى ألما شديدا، وراح يبكيها مر البكاء٠

---

(١)مع المتنبى: طه حسين صـ١٧

(٢)الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى:د/ طه أبو كريشةصـ١٥٦

قصيدة المتنبى فى رثاء جدته

مطلع القصيدة:-

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذمـــا فما بطشها جهلا ولا كفـــها حلمـــا
إلى مثل ما كان الفتى مرجـــع الفـــتى يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى(٣)

وهو مطلع حائر قلق متردد، فالحوادث التى وقعت، وتســـببت فـــى غربته وبعده عن جدته، والحوادث التى حالت دون رجوعها إليها ، والتـــى كانت سببا فى موت الجدة دون أن يراها ودون أن تراه، ترى أيـــذم هـــذه الأحداث؟ إن الأحداث لا تبطش جهلا، ولا تكف حلما،٠ وإذن فلا مدح ولا ذم، فكل شىء بيد الله عز وجل وبإرادته، وإنما نسبة الفعل إلى الأحـــداث من المجاز، وسنة الحياة أن تكون بداية ونهاية وزيادة ونقصان٠، ومن هنا يجد الشاعر نفسه مباشرة ودون أن تطول حيرته يبكى هذه الجـــدة التـــى فجعت بحبها، والتى قتلها الشوق والوجد إلى ابن عزيـــز، فـــهو حـــب لا يعاب، لأنه شوق الأم إلى ولدها٠

لـــك الله مـــن مفجوعـــة بحبيبـــها قتيلة شوقى غير ملحقـــها وصمـــا

ثم يعود إلى الحديث عن نفسه، وعن أثر الليالى والأحداث عليه ،فقـد تعود ذلك من الزمان وكر الليالى، فلما مـــاتت الجـدة لـم يكـن الأمـر ***بالمستغرب من الليالى وكرها:-***

---

(٣) الإبداء: الخلق، وأكرى الشىء: نقص، وأرمى:زاد

عرفت الليالى قبل ما صنعــــت بنـــا　　　فلما دهتنى لم تـــــزدنى بهـــا علمـــا

ثم يعود إلى الحديث عن جدته، فهى كانت تؤثر غيرها على نفســـها، وتعود إذا جاعت لتطعم الناس، وشبعها وريـــها وفرحتـــها وســـرورها إذا *أشبعت الناس وجاعت هى:-*

منافعها ما ضــــر فى نفـــع غيرهـــا　　　تغذى وتروى أن تجوع وأن تظمـــأ

ثم يقسم البيت الذى يليه بينه وبين جدته ، فهى قد أتاها كتابـــــه بعـــد يأس وطول غياب، فماتت سرورا بالكتاب وما فيه، **ومات المتنبـــى غمـــا على جدته:-**

أتاها كتابى بعــــــد يـــأس وترحـــة　　　فماتت سرورا بى فمت بهـــا غمـــا

ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه فى بيت واحد أيضا، فإذا كان السرور قد قتل الجدة، ***فإنه سيحرم على نفسه السرور ولن يقربه لأنه كان ســـببا فى قتل الجدة:-***

حرام على قلـــبى الســـرور فـــإننى　　　أعد الذى ماتت بـــه بعدهـــا سمـــا

وهكذا من بداية القصيدة، وهو يرفض الابتعاد عن جدته، فإذا تحـدث عن نفسه واصفا حاله فى بيت من الأبيات، ركض سريعا إلى جدته يصفها فى بيت آخر وهكذا، ثم تغير الحال بعد ذلك، وبداله أن الفـــــراق حقيقـــة واقعة ولذا راح يباعد بينه وبين جدته فى الحديث، ونراه فى الأبيات التـــى

أتت بعد ذلك يصف جدته وحالها فى أربعة أبيات، وهذا لم يحدث من بداية القصيدة• إنه يصف حالها وهى تتطلع فى خطابه، وتتمعن فى حروفه وسطوره، كأنها تريد أن ترى وليدها بين هاتيك السطور، إنها لا تصدق أن ابنها موجود، ولذا فهى ترى فى حروفه وسطوره شيئا عزيزا نادرا مثل الأغربة التى فى جناحها بياض• لقد راحت تملى نظرها فى السطور وانكبت على الخطاب لثما وتقبيلا، حتى حول المداد محاجر عينيها مع الدموع إلى سواد، لقد أدمى حب الشاعر قلبها وهى حية، ولها هو الموت ينهى كل شيء، ***تجف الدموع والجفون، ويخمد هذا الحب العفيف:-***

تعجب من لفظى وخطى كأنما	ترى بحروف السطر أغربه عصما
وتلثمه حتى أصار مداده	محاجر عينيها وأنيابها سحما
رقاد دمعها الجارى وجفت دموعها	وفارق حبى قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها إلا المنايا وإنما	أشد من السقم الذى أذهب السقما

لقد ماتت الجدة وجفت دموعها ، وذهب سقمها ، بل وحبها لوليدها ، ومن هنا صار الشاعر وحده فى مواجهة الحياة، فى مواجهة الشامتين والحاقدين ، ولذا نراه وقد فرغ للحديث عن نفسه لا يتحرر فجأة ، ولكنه يتحدث عن الفراق وقد كان طلبا للرزق ، مع أن الجدة كانت راضية به وحده قسما ونصيبا ، لو رضى هو وقنع ، وإذا كان الشاعر يستسقى الغمام لقبرها ، فقد كان قبل ذلك يقاتل ويطلب من الرماح أن تسقيه دماء الأعداء ، لقد كان قبل موتها يستعظم النوى ، ويتألم من الفراق ، فصار

هذا الفراق هونا يسيرا بجانب الفراق الأعظم وهـــو المـــوت. وإذا أخــذ الشاعر ثأره من الأعداء فكيف يأخذ بثأره من الحمى التى انتزعت جدتـــه منه؟ لقد سدت السبل أمام الشاعر ، وما ذاك لضعف منه ، ولكـــن مـــوت الجدة حوله إلى أعمى يتخبط ، لا يرى الطريق ، ثم يصــــرخ متحســـرا، واحسرتاه أن فاتنى وداعك وتقبيل رأسك وصدرك ، وقد ملئا حزما وحكمة وآسفاه إن فاتنى وداع تلك الروح الطيبة الطاهرة ، وكفاك فخرا أيتها الجدة أنك ولدت هذا الشاعر الفحل وإذا كان المتنبى قد تحدث عن جدتــــه فـــى أربعة أبيات سابقة ، فقد تحدث عن نفسه وعن جدته فـــى ثمانيـــة *أبيـــات اشتركا فيها:-*

١-طلبت لها حظـــا ففـــاتت وفـــاتنى	وقد رضيت بى لو رضيت بهـــا قســـما
٢-فأصبحت استسقى الغمام لقبرهـــا	وقد كنت استسقى الوغى والقنا الصمـد
٣-وكنت قبيل الموت استعظم النـــوى	فقد صارت الصغرى التى كانت العظمى
٤-هبينى أخذت الثأر فيك من الفـــدى	فكيف بأخذ الثأر فيـــك مـــن الحمـــى
٥-وما انسدت الدنيا علـــى لضيقـــها	ولكـــن طرفـــا لا أراك بـــه أعمـــى
٦-فـــوا أســـفا ألا أكـــب مقبـــلا	لصدرك والرأس الـــذى ملئـــا حزمـــا
٧- وألا ألاقى روحك الطيب الـــذى	كان ذكى المسك كـــان لـــه جســـما
٨-ولو لم تكونى بنـــت أكـــرم والـــد	لكان أباك الضخـــم كونـــك لى أمـــا

وقد كان هذا البيت الأخير ، الذى يقول فيه لجدته "إن أباك الضخـــم كونك لى أما" كان بابا واسعا لولوج إلى الفخر ومواجهة الشامتين والـــترفع *عليهم والفخر بنفسه حين ينهى القصيدة بقوله:*

لئن لذ يـــــوم الشـــامتين بيومـــها لقد ولدت منىلأنفسهم رغمـــا (١)

إلـى أن يقول :-

فلا عـــــبرت بى ســـاعة لا تعـــزنى ولا صحبتنى مهجة تقبـــل الظلمـــا

المتنبى والوعى الفنى:

توزعت أبيات القصيدة بهذا الترتيب وجاءت على هذا النسق،فبيـــــت يقسمه هو وجدته ، وبيت له وبيت لجدته ، وأربعـــة أبيـــات خاصـــة بـــه وأخرى بعدها وبنفس عددها يتحدث عن جدته ، ثم ثمانية أبيـــات يشـــترك فيها مع جدته ، فهل يعنى هذا التوازن تصوير الشاعر للتلاحم والـــــترابط النفسى بين الشاعر وبين جدته؟ هل كان المتنبى على وعى بهذا التقســـــيم الدقيق لأبيات القصيدة؟ هل قصد المتنبى إلى تقسيم قصيدته إلى مقـــاطع ، المقطع الأول من ثمانية ابيات يقسمها بينه وبين جدته ، بين الحديث عــــن نفسه فى بيت ، ثم يتلوه بآخر عن جدته وهكذا- إلى آخر المقـــاطع؟ هـــل قصد هذا ذلك؟ وإذا لم يكن يقصد ، فهل تنازل عن الأنا المتضخمة عنــــده بحيث أنه كان يضع نفسه بجوار الممدوح ، حتى ولو كان ســـيف الدولـــة نفسه [ويكفى أن تراجع مدائحه ، فسوف نجد الكثير منها ينهض على تلـــك المعادلة المقدرة بين وجهين يتفوق كل منهما بما ليس فى الآخر ، ويكتمـــل

(١) شرح ديوان المتنبى لليازجى حـــ ١ صـــ ٣٤٨ ، دار صادر بيروت

كل منهما بصاحبه اكتمال العملة بوجهيها ، فلا تدرى هل كـــان الشـــاعر يضع عينه على ممدوحه فقط، أم *كان يجلو نفسه من خلاله؟ وهـــل كـــان يراه وحده أم كان يرى نفسه معه:*

خليلـــى: إنى لا أرى غـــير شـــاعر	فلم منهم الدعوى ومنى القصـــــائد
فلا تعجبــــا إن الســـيوف كثـــيرة	ولكن سيف الدولة اليـــوم واحـــد

فتفرد الفنان بشعره برغم كثرة الأدعياء ، لا يحاكيه ويتوازى معه إلا تفرد سيف الدولة برغم كثرة السيوف وهو يعكس لنا اعتزاز المتنبى بنفسه حتى وهو يمدح سيف الدولة ، فهو يقرن نفسه بسيف الدولة ، أو فلنقل إنـــه يمدح سيف الدولة عندما يضعه بجواره ، *وهو الذى يقول فـــى قصيدتـــه الذى يرثى فيها جدته:-*

تفرد لا مســـــتعظما غـــير نفســـه	ولا قـــابلا إلا لخالقـــه حكمـــــا

فهو لا يستعظم إلا نفسه ، ولا يقبل حكما غير حكم الخالق عز وجل، والواقع أن المتنبى لا يستطيع أن يفسح مكانا للآخرين بجواره ، حتى ولـــو كان هذا الاخر هو جدته التى ماتت شوقا إليه. والقصيدة التى بين أيدينـــا ، وإن كانت شاهد صدق على انه أفسح لجدته مكانا بجواره ، فهى آية صدق كذلك على أنه أغفل جدته بعد هذه الأبيات ، وتناساها ، وراح يفتخر بنفسه ملتفتا إلى ذاته ، فى اثنى عشر بيتا ، *تحدث فيها عن نفسه محلقـــا فـــوق الوجود بذاته:-*

لئن لـــذ يـــوم الشـــامتين بموتهـــا   لقد ولدت منى لأنفســـهم رغمـــا
تغرب لا مســـتعظما غـــير نفســـه   ولا قـــابلا إلا لخالقـــه حكمـــــا
ولا ســـالكا إلا فـــؤاد عجاجـــة   ولا واجـــد إلا لمكرمـــة طعمـــــا
يقولون لى ما أنت؟ فى كـــل بلـــدة   وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يســـمى
كـــأن بنيـــهم عـــالمون بـــــأننى   جلوب إليهم من معادنـــــه اليتمـــا
وما الجمع بين الماء والنار فى يـــدى   بأصعب من ان أجمع الجد والفـــهما
ولكنـــنى مســـتنصر عنـــد بابـــه   ومرتكب فى كل حال به الغشـــما
وجاعلـــه يـــوم اللقـــاء تحيـــتى   وإلا فلست السيد البطل القرما(١)

أبو فراس الحمدانى (١) :

بين يدى القصيدة:-

لقد أسر أبو فراس فى بلاد الروم ، وأرسل قصائد استعطاف إلى ابن عمه ليخلصه من أسره ، تلك القصائد التى عرفت هى وغيرها بالروميات،

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى : الشيخ ناصيف اليازجى ، المجلد الأول صـــ ٣٤٨

(١) أبو فراس الحمدانى (٣٢٠-٣٥٧هـــ) هو أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى ، سماه والده الحارث ، وكنـــاه أبـــا فراس. وقد قتل والده وهو فى الثالثة من عمره ، وعاش يتيما تحضنه أمه ى ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة، ولما اســـتوى سيف الدولة على سرير الملك حمل معه أبا فراس ، و فى قصر الملك درس العلم و الأدب و تعلم الفروسية ، فاجأه كمين مـــن الروم ، ففر أصحابه و قاتل وحده حتى أسر ، و بقى فى الأسر سبع سنوات إلى أن افتداه سيف الدولة. ومات سيف الدولـــة بعد.عودة أبى فراس من سجنه بسنة واحدة ، و قد حاول أبو فراس أن ينصب من نفسه أميرا على حمص ، فأرسل أبو المعـــالى ابن سيف الدولة جنوده لقتال أبى فراس و هزيمته و قتله سنة ٣٥٧ هـــ .

وقد ذهب صوته أدراج الرياح ، مما هز تلك الأم ، وحركها مـــن "منبـــج" إلى "حلب" تستعطف سيف الدولة ، وتسفح الدموع أمامه ، علّه يرق لــــها، وينقذ ولدها ، ولم يستجب لها سيف الدولة ، وردّها خائبة تحمل فى قلبـــها حسرة وألما٠ ويصل الخبر إلى أبى فراس ، *إلى الأسير فى بلاد الـــروم، ويجثم الهم على قلبه، وينفث قصيدة تضجّ بالألم وتفيض بالحزن:-*

يـــا حســـرة مـــا أكـــاد أحملـــها	آخرهـــا مزعـــج وأولهـــا
عليلـــة بالشـــام مفــــردة	بـــات بـــأيدى العـــدى معللـــها
تمســك أحشـــاءها علـــى حـــرق	تطفئـــها والهمـــوم تشـــعلها

وهو يشير إلى تلك الأم التى باتت عليلة ، وعلتها هى شوقها إلـــى ابنـــها الأسير ، طبيبها ومعللها فى أيدى الأعداء٠ ومن ثم فهو يلجأ إلى مخاطبـــة أمه ، مناديا عليها ، مستشعرا وجودها رغم هذه الحواجز ، *متأبيـــا علـــى المسافات والأسر إلى أن يقول:-*

يا أيـــها الراكبـــان هـــل لكمـــا	فى حمـــل نجـــوى يخـــف محملـــها
قـــولاً لهـــا إن وعـــت مقالكمـــا	وإن ذكـــرى لهـــــا ليذهلـــها

ثم يتجه إليها مباشرة بقوله:-

يـــا أمتـــــا هـــــذه منازلنـــا	نتركـــها تـــارة وننزلهــــــا
يـــا أمتـــــا هـــــذه مواردنـــا	نعلّـــها تـــارة وننهلــــــها

وإذا كان الشاعر يحاول بهذه الكلمات أن يهدأ ويطامن مـــــن حـــزن الأم، ويصور لها ما هو فيه على أنه أمر طبيعى وعادى ، فالأسر مــــنزل الشجعان والفرسان ، وليس بموطن لجبان ، وتلك أمور عادية ، ومـــوارد ينهل منها و يعل كل فارس صنديد ،ومع ذلـــك لا يســتطيع الشـــاعر أن يسترسل ، فهو أدرى الناس بان الأم لن تخدعها هذه الكلمات ، ولن تشغلها عن حزنها الذى يعتصرها ، ولذلك يلتفت مباشرة إلى ابن عمه

معاتبا ومطالبا إياه بتخليصه من الأسر [وبرغم أن القصيــدة تحمـل شيئا من التكرار فى صورة اللفظ و المعنى ، إلا إن الصدق العميق الــذى يغلف القصيدة كلها ، يجعل لهذا التكرار مذاقا مختلفا ، فهو يــدلا مــن أن يصبح تطفلا على القصيدة ، يزيد من العمق فى المعنى العام الذى يريد أن يصل إليه ، ويشكل إضافة للبعد النفسى الذى يحاول الشـــعر أن يرســمه بإتقان [١]

وقد ثقلت جراح أبى فراس فى أسره ، وكانت أكثر الجـــروح عليــه جرح أمه الذى ينزف لغيابه وفراقه فأرسل إليها هذه الأبيـــات يصبرهـــا ***ويردها عن الجزع إلى الصبر الجميل :-***

وإن وراء الســـتر أمـــا بكاؤهـــا	على وإن طـــال الزمـــان طويـــل
فيا أمتا لا تعدمــــى الصـــبر إنـــه	إلى الخير والنجح القريب رســـول

(١)دراسات فى الأدب العربى : محمد إبراهيم أبو سنه صـــ٥٣ سلسلة إقرأ

ويا أمتـا لا تخطـئ الأجـر إنـه — على قدر الصبر الجميـل جزيـل
أما لك في ذات النطـاقين أسـوة — بمكة والحرب الصوان تجـول(٢)

أبو فراس يبكى أمه:-

وسط هذا الجو النفسى المؤلم، والأسر والقلق وعدم الفداء، مـاتت أم أبى فراس، وبلغه الخبر وهو فى الأسر، وراح الشاعر الفارس يتلوى مـن *الألم وعزفت قيثارة الشعر هذا الصوت النائح الباكى:-*

أيـا أم الأسـير سـقاك غيـث — بكره منـك مـا لقـى الأسـير
أيـا أم الأسـير سـقاك غيـث — تحـير لا يقيـم ولا يسـير
أيا أم الأسير سقاك غيـث — إلى من بالفدا يأتى البشيـر

بهذه الجمل النائحة النادبة يفتتح الشاعر مرثيته، طالبا لأمه الرحمـة والمغفرة والسقيا. لقد كان ينتظر الخروج من الأسر لتكون فرحة أمه، لقـد كان يتمنى الفكاك من أسره ، لا لشئ إلا لتسعد بهذا الخبر ، كان يتمنى أن يخرج لتراه فى أحسن زينة ، وها هى أمانيه تذهب أدراج الرياح.

إذا ابنـك سـار فى بـر وبحـر — فمـن يدعـو لـه أو يسـتجير
حـرام أن يبيـت قريـر عـين — ولـؤم أن يلـم بـه السـرور
وقـد ذقـت المنايـا والرزايـا — ولا ولـد لديـك ولا عشـير
وغاب حبيب قلبك عن مكـان — ملائكة السماء به حضور

(٢) ديوان أبى فراس : صـ ٢٣٣

فى أربعة أبيات يتحدث الشاعر عن حاله بعد فقد والدته ، لقـــد فقــد القلب الرحيم الذى يدعو له ، ولذا فحرام عليه أن تقر عينه ، وأن يلم بـــــه السرور مجرد إلمام ، بعد أن ذاقت أمه المنايا فى غيابه ، ***وشيعتها ملائكة السماء***:-

ليبكك كـــل يـــوم صمـــت فيـــه	مصـــابرة وقـــد حمـــى الهجـــــير
ليبكك كــــل ليـــل قمـــت فيـــه	إلى أن يبتـــدى الفجـــر المنـــــــير
ليبكك كــــــل مضطـــهد مخـــوف	أجرتيـــه وقـــد قـــــــل المجـــــير
ليبكك كل مسكين فقيـــــــــــــر	أغثتيه وما فى العظم ديـــــــــر(١)

أربعة أبيات تالية يتحدث الشاعر فيها عن الأم ، ومآثرها ، فقد كانت صوامة قوامة ، مجيرة للخائف ، مؤثرة للفقير على نفسها حتى ولو كـــانت آخر لقمة عندها .

والشاعر لا يسوق هذه المآثر فى جمل تقريرية ، وإنما يصورها وقـد افتقد المسكين عطفها ، واحتاج الخائف إلى أمانها ، فصارا يبكيان عليــها ، وتفقدها موضع سجودها وحن إليها ، وبكى عليها:-

أيـــا أمـــاه كـــم هـــم طويــــــل	مضى بـــك لم يكـــن منـــه نصـــير
أيـــا أمـــاه كـــم ســـر مصــــون	بقلبك مـــات ليـــس لـــه ظـــهور
أيا أماه كم بشرى بقـــــــــــربى	أتتك ودونها الأجل القصيـــــــــر

(١) دير : تركت المخ رارا أى ذائبا رقيقا للهزال وشدة الحرب، دير:الذى كان سحا فى العظام

وهو فى هذه الأبيات يندب تلك الأم ، ويبكى ما أصابها ، مناديا عليها ولا مجيب ، مكررا النداء ولا استجابة ، كم أصابها من هم طال بها دون نصير أو مدافع ، لقد كانت مستودع أسرار ، وماتت ومعها أسرار كثيرة ، وكم انتها من بشارات بقرب اللقاء ، ***وحال الأجل دون تحقيق هذه الأمانى:-***

إلى من أشتكى ولمن أناجى ... إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأى دعاء داعية أوقى ... بأى ضياء وجه استنير
بمن يستدفع القدر الموقى ... بمن يستفتح الأمر العسير
نسلى عنك أنا عن قليل ... إلى ما صورت فى الأخرى نسير

وهكذا فى أربعة أبيات أخيرة يختم الشاعر بها قصيدته ، يعود إلى الحديث عن حاله بعد فقد والدته ، فى أسئلة حيرى لا تجد لها إجابة، غرضها الإقرار بالعجز والضعف والخسارة الفادحة ، لمن يشكو؟ ومن يناجى إذا ضاقت الصدور واحتاج الابن إلى من يناجيه؟ من الذى يدعو له بالوقاية من الشرور؟ بأى وجه يستنير وقد كان وجهها الضياء والنور له؟ بمن يستدفع القدر؟ وبمن يستفتح الأمر العسير؟ لقد كانت عونا له وسندا فى الأمور كلها. أيهنأ له عيش؟ أيستطيع العيش بدونها؟ إن العزاء الوحيد لهذا الابن بعد فقد أمه ، أنه لاحق بها عما قليل ، وأنه صائر إلى ما صارت إليه.

❑ بين المتنبى وأبى فراس:-

هناك صلة ما تربط بين المتنبى وأبى فراس· ولا أعنى بهذه الصلـــة بلاط سيف الدولة الذى ضمهما معا ، ولا العزة وطّلب المجد الذى يجمـــع بينهما ، ولا شاعرية كلا منهما ، ولكن الصلة التى أقصدها هى ما يخــص الموضوع الذى نحن بصدده ، وهو رثاء الأم· فالذى ربى المتنبــــى هـــو جدته ، وقد قتل والد أبى فراس وهو فى الثالثة من عمره ، وعاش يتيمـــا تحتضنه أمه أيضا· هذه واحدة تجمع بين الشاعرين· والثانيـــــة أن جـــده المتنبى قد ماتت وهو غائب عنها· وكذلك ماتت أم ســـيف الدولـــة وهـــو غائب عنها فى غياهب جب الأسر· والثالثة أن المتنبى أرسل رسالة لجدته يخبرها فيه بعودته ، وكذلك أرسل سيف الدولة قصيدة إلى أمه يشير عليها بالصبر والتأسى·

ولكن واحدة تباعد بين المتنبى وأبى فراس وهى واحدة لها خطرهـــا وأثرها فى بناء القصيدة ، وهذه الواحدة الفارقة هى الظروف التــــى كـــان يعيشها أبو فراس وقت إنشاء قصيدته ، لقد كان أسيرا فى أيـــدى الـــروم، وكم أرسل القصيدة تلو القصيدة يستعطف فيها سيف الدولة ليخلصه مـــــن الأسر ، ولكنه بقى فى أسره سبع سنوات ، وقد راحت أمه تستعطف سيف الدولة فردها خائبة ، ***وراح أبو فراس يجتر أحزانه فى أسره عاتبا علــــى سيف الدولة:-***

بــــأى عـــذر رددت والهـــــة	عليـــك دون الـــــورى معولهــــا
جـــاءتك تمتــــاح رد واحدهـــا	ينتظـــر النـــاس كيـــف تقفلـــها(١)

وهى ظروف نفسية كان لها تأثيرها على رثاء أبى فراس لأمه ، بعكـــــس المتنبى وقد كان حرا طليقا ، ومن هنا فقد ملأ قصيدته بـــالفخر والتحـدى للآخرين٠

الوعى الفنى عند الشاعرين:-

انقسمت القصيدة عند المتنبى وعند أبى فراس إلى مقاطع متســاوية ، وقد توزعت بين الحديث عن الأم والحديث عن الشاعر من ناحية أخرى٠

وقد اتضحت هذه الظاهرة عند أبى فراس بصورة جلية٠ ومن يرجـع إلى "كتاب فى ميزان النقد الأدبى"(٢) يلاحظ تقسيم المؤلف للقصيـــدة إلـــى مقاطع متساوية تماما ، يتكون المقطع الأول من أربعة أبيـــات ، وكذلــك المقطع الثانى والثالث والمقطع الرابع ثلاثة أبيــات ، والمقطـــع الخـــامس أربعة أبيات٠ ومن هنا نجد توزع عاطفة الشاعر بينه وبين أمه٠

---

(١)ديوان أبي فراس صـــ٢٤٣

(٢) في ميزان النقد الأدبي٠ د طه أبو كريشة صــ ١٤٢

وكذلك فعل المتنبى حين قسم قصيدته إلى مقاطع بينه وبين جدته ، وإن كان فى نهاية القصيدة قد غلبته أثرته وحبه لنفسه ، فاختتم قصيدته بالفخر والحديث عن نفسه.

الشريف الرضى:-

من الشعراء الذين بكوا الأم بكاءا مرا مؤثرا يقطع نياط القلوب: الشريف الرضى فقد رثاها فى سنة ٣٨٥ هـ فى قصيدة طويلة تربو على خمسة وستين بيتا. وقد ماتت وعنده ست وعشرون سنة[1] وقد جاءت قصيدته فى أمه عميقة مؤثرة ، سكب فيها عصارة قلبه ، واسمى مشاعره وأحاسيسه ، فهو حائر ملتاع متفجع ، يتمنى لو ينفعه البكاء أو القول أو التصبر ، ولكنه يعلم أن كل ذلك لا يعيد مفقودا أو يرد ميتا. إنه يتقلب بين التصبر تارة ، وبين الدموع تارة أخرى ، وتارة ثالثة يغلبه الحياء ، إنه يغالب دمعه ويستره ، مبديا التجلد لعدوه ، ***ولو كان يفتدى ميت أو يدفع حمام ، لتكدست عصب وراء لوائه:-***

أبكيك لو نقع الغليل بكائى	واقول لو ذهب المقال بدائى
وأعوذ بالصبر الجميل معزيا	لو كان بالصبر الجميل عزائى
طوراتكاثرنى الدموع وتارة	آوى إلى أكرومتى وحيائى
كم عبرة موهتها بأناملى	وسترتها متجملا بردائى

(١) ولد الشريف الرضى فى سنة ٣٥٩ هـ وتوفى سنة ٤٠٦ هـ عن سبع وأربعين سنة. انظر: الشريف الرضى : حياته وشعره. حسن جعفر نور الدين صـ ٦٥

لو كان يدفع ذا الحمام بقــــــــوة	لتكدست عصب وراء لوائـــــــــى

ويلجأ بعد ذلك إلى الفخر، فيرسم لوحة لهذه العصبة ، فهم مدربون علـــى القراع ، تفيأوا ظل الرماح، يمشون وقد لبسوا الدروع فإذا هم كـــالصخور الصماء فى الصلابة والقوة، تبرق دروعهم، وترعد صوارمـــــهم، وسـط الغبار ووابل الدماء.

وهو لم يلجأ إلى الفخر لمجرد الميل إلى الفخر ، ولكنـــه يعـرف ترصـد الأعداء له ، وتربصهم به وشماتتهم فيه ، ولذا فهو يبدى التجلد لهذا العـدو ، ولو اطلعوا على ما أصابه لشفت نفوسهم. وبعد ذلك يعود إلـــى تذكـر حاله ، ووصف مآله ، لقد فارقه تماسكه وخانه تجلـده ، ***ونســى التعــزز والإباء:-***

فـــارقت فيـــك تماســـكى وتجملــــى	ونســـيت فيـــك تعـــززى وإبــــائى
وصنعت مـــا ثلـــم الوفـــاء صنيعـــه	مما عــــرانى مـــن جـــوى البرحـــاء
كم زفرة ضعفـــــت فصـــارت أنـــة	تممتــــها يتنفــــس الصعـــــــداء
لهفان أنزو فى حبائل كربـــــــــة	ملكت على جلادتى وغنائـــــــى

ومن ثم يعرج على الزمان والدنيا، فقـــد جـرى الزمـــان علـــى عادتـــه ومكايدته، فقلب الآمال وعكس الرجاء، لقد كـــان يـــود أن يكـــون الفـــداء لأمه، فإذا هى التى تتقدمه، وتفرق القرباء وهذا هو شأن الدنيا"للمنع آونـــة وللإعطاء"، تبادلك الصفاء تارة، والبغضاء تارة أخرى. مهما طال عمـــر الإنسان كروحة الراكب قضاها وجد فى الإسراء. وبعد هذه اللوحة التـــى رسمها للزمان، يعود إلى أمه متحدثا عن عظمة تلك الأم العفيفة الزاهـــدة

الصائمة القائمة ، أينما قلب بصره وجد فضلها ومآثرها الباقية ، صنائع معروف تقر نواظره فتطفر العين بالدمع على صاحبة هذه الأيادى. إن هذه ***الأيادى خلدت تلك الأم وإن رحلت بجسدها.***

أنضيت عيشك عفة وزهادة	وطرحت مثقلة من الأعباء
بصيام يوم القيظ تلهب شمسه	وقيام طول الليلة الليلاء
ما كان يوما بالغبين من اشترى	رغد الجنان بعيشة خشناء
لو كان مثلك كل أم برة	غنى البنون بها عن الأبناء
كيف السلو وكل موقع لحظة	أثر لفضلك خالد بإزائى
فعلات معروف تقر نواظرى	فتكون أجلب جالب لبكائى
ما مات من نزع البقاء وذكره	بالصالحات يعد فى الأحياء

وعند هذا الحد ، وبعد أن اتقى الأعداء بوصف حاله والفخر بقوته، وبعد أن مدح والدته بما تستحق مؤكدا على أنها باقية بمآثرها ، لم يبق إلا الشاعر ، وإلا المصيبة وجها لوجه مرة أخرى ، ليس فيها عدو ولا دهر ولا بقاء ، ولا يجد الشاعر مرة أخرى إلا الذكريات ، إلا ما كانت الأم تفعله فى حياتها من دعاء وحب وعون مادى ومعنوى ، لا يجد إلا مآثر أمه يتترس بها فى مواجهة المصيبة، فساعة تسعفه هذه المآثر، وساعة يخر ***ضعيفا فزعا يتقلب فى الظلال كأنها الرمضاء:-***

فبــأى كــف اســتجن وأتقـــــى
صرف النوائــــب أم بــأى دعــاء؟

ومن الممــول لى إذا ضــاقت يــدى
ومــن المعلـــل لى مـــن الأدواء؟

ومـــن الـــذى إن ســـاورتنى نكبـــة
كــان الموقــى لى مــن الأســـواء؟

أم من يلـــط علـــى ســتر دعائـــه
حرمــا مــن البأســاء والضــــراء؟

رزءان يـــزدادان ، طـــول تجـــدد
أبــد الزمـــان: فناؤهـــا وبقــــائى

شـــهد الخلائـــق أنهـــا لنجيبـــة
بدليل مـــن ولـــدت مـــن النجبـــاء

فى كـــل مظلـــم أزمـــة أو ضيقـــة
يبـــدو لهـــا أثـــر اليـــد البيضــــاء

ذخرت لنا الذكر الجميل إذا انقضـى
مـــا يذخـــــر الآبــــاء للأبنــــاء

قد كنت آمـــل أن يكـــون أمامـــها
يومى وتشـــفق أن تكـــون ورائـــى

كـــم آمـــر لى بالتصـــبر هـــاج لى
داء وقـــدر إن يكـــــون دوائـــــى

آوى إلى بـــرد الظـــلال كـــــأننى
فـــزع اللديـــغ نبـــا عـــن الإغنـــاء

وأهب من طيب المنام تفزعـــــــا
لتحرقى آوى إلى الرمضـــــــــاء

ويعود الشاعر مازجا المدح بالفخر ، فى محاولة لرفع هـــذا الكيـــان الذى هوى وتماسك هذا الجبل الذى اندك ، إنهم آباء وأصول هـــذه الأم ، الذين نصروا الحق ، ودعوا إلى الهدى ، وكشفوا الغمة وتستموا الغليـــاء ، مع سداد القول والرأى ، رغم شدتهم يرجون تكرما ، ورغم لينـــهم فـــهم يرهبون تخوفا ، لقد ذهبوا مع الذاهبين ، ***ولكن بعد أن عبدوا طرق العلياء والرفعة:-***

آبـــاؤك الغـــر الذيـــن تفجـــرت
بهـــم ينــــابيع مـــــن النعمــــاء

مـــن نـــاصر للحـــــق أو داع إلى
ســـبل الهـــدى أو كاشـــف الغمـــاء

نزلوا بعرعرة الســـــنام مـــن العلـــى ... وعلوا على الأشـــباح والأمطـــاء(١)
من كل مستبق اليديـــن إلى النـــدى ... ومســـــــدد الأقـــــوال والآراء
يرجى على النظـــر الحديـــد تكرمـــا ... ويخـــاف فى الإطـــراق والإغضـــاء
درجوا على أثر القرون وخلفـــوا ... طرقا معبدة من العليـــــــاء

والشاعر فى محاولة للتماسك يلوذ مرة بالفخر ، وأخـــرى بالتأســـى بالسابقين ولكنها محاولات وقتية، سرعان ما يفيق بعدها فلا يجد أمامـــه إلا مصابه، هو هو لم يتغير، ولم يتوار، إنه الموت، إنه القبر، ومن هنا يعـــود الشاعر للالتحام مرة أخرى مع فجيعته، ويرود نفسه على التصدى لـــها ، لقد كان خلالها فى الأبيات السابقة يحدث أمه ، يحدث أمـــه التـــى كـــانت وكانت ، والآن وبعد محاولات مضنية للتماسك ، لم يعد هنـــاك مـــن أم ، وإنما هو القبر ، **نراه يخاطب القبر:**" يا قبر، ويالها من لحظة يائسة تلـــك التى أفاق فيها الشاعر من أوهامه وتجسد مصابـــه أمامـــه، هـــو المـــوت إذن ، وهو القبر لا جدال". يا قـــبر أمنحـــه الـــهوى، إذا كـــانت الأم قـــد غابت، فلا بديل من القبر، ولم لا ؟ والقبر يضم بين جوانحـــه هـــذه الأم، ليمنحه الهوى ويضمه ويود لو انسابت السماء أمطارا دامعة عليـــها، هـــو الدعاء بالسقيا لهذا القبر، فلتجلجل الرعود مقتادة مثقلة الغمـــام، وعـــذراء السحاب ، لتغذو الجميم بروضة عذراء ، ولكن ما له يوكل سقيا القـــبر ، ويكل هذه المهمة إلى السماء ، إنه لؤم منه ، أن يكل هذا الأمر إلى السماء

---

(١) عرعرة السنام: رأسه ، الأتباج جمع تبج: من بين الكاحل إلى الظهر، الأمطاء جمع مطا وهو الظهر

، ولم لا يسقى القبر بدموعه؟ ، إن هذا الفيض من الدموع وهذه السحابات من الأحزان لكفيلة بهذا الأمر .

يا قـــبر أمنحـــه الهـــوى وأود لـــو ... نزفت عليـــه دمـــوع كـــل سمـــاء
لا زال مرتجـــز الرعـــود مجلجـــــل ... هزج البـــوارق مجلـــب الضوضـــاء

يرغو رغاء العود جعجعـــه الســـرى ... وينوء نـــوء المعـــرب العشـــراء(١)
يقتـــاد مثقلـــة الغمـــــام كأنمـــــا ... ينـــهضن بـــــالعقدات والأنقــــاء
يهفو بها جنـــح الدجـــى ويســـوقها ... ســـوق البطـــاء بعـــاصف هوجـــاء
يرميـــك بأرقـــها بـــأفلاذ الحيـــــا ... ويغض فيـــك لطـــائم الأنـــداد(١)
متحليـــا عـــذراء كـــل ســــحابة ... تغـــزو الجميـــم بروضـــة عــــذراء
للؤمـــت إن لم أســـقها بمدامعــــــى ... ووكلـــت ســـقياها إلى الأنــــــواء

لقد وصل الشاعر بعد وقفته على القبر إلى مرحلة اليقين والهدوء النفسى ، لقد ماتت الأم، وها هو القبر، بل ها هى قبور السابقين من قومه، ها هـــى قبورهم تملأ الساحة أيضا، وها هو يتحسر علـــى هـــؤلاء أيضـــا، ولقـــد توزعت المصيبة، أصبحت مصيبة عامة، والهفتاه علـــى هـــؤلاء القـــوم، توسدوا التراب، وكحل التراب جفونهم، وقد كان حريصا علـــى الحفـــاظ عليها من القذى لقد قرب الضريح، وتباعدت الأرواح. إن المعروف الـــذى

---

(١) العشراء : التى مضى لحملها عشرة اشهر ، والعقدات جمع عقدة وهو ما تراكم من رمل ، والأنقاء جمع نقا وهى القطعة من الرمل

(١) لطائم الأنداء : لطائم جمع لطيمة وهو وعاء المسك

قدمته هذه الأم هو سميرها وأنيسها، وصالح الأعمال هو الضياء لها في قبرها. أما هو فلا عيش ولا كتائب، ولا عدد ولا عناء، لم يعد يملك لها إلا الدعاء. فقد كان فعلها يرضي الله ، ورحمته سترضيها وصلاتها المتواصلة قبل الموت ، ستكون صلاة ورحمة من الله. وعندما يصل الشاعر إلى هذه القناعة يقول لها لو كان صفيح القبر يبلغك رسائلي ، أو يسمعك التراب النداء لسمعت طول تأوهه

وتفجعه، ***ولكن الصفائح والتراب تحولان دون ذلك وهو منتهى التسليم واليقين في نهاية القصيدة :-***

لهفي علـى القـوم الأولى غـادرتهم ... وعليـهم طبـق مـن البيــداء
متوسـدين علـى الخـدود كأنما ... كرعوا على ظمـأ مـن الصـهباء
صور ضننت على العيـون بلحظـها ... أمسيت أوقرهـا مـن البوغـاء(١)
ونواظـر كحـل الـتراب جفونها ... قد كنـت أحرسـها مـن الأقـذاء
قربت ضرائحـهم علـى زوارهـا ... ونـأوا عـن الطـلاب أى تنـائى
ولبئس مـا تلقـى بعقـر ديـارهم ... أذن المصيـخ بها وعـين الرائـى
معروفك السـامى أنيسـك كلمـا ... ورد الظـلام بوحشـة الغـبراء
وضيـاء مـا قدمتـه مـن صـالح ... لك فى الدجى بدل مـن الأضـواء
إن الذى أرضـاه فعلـك لا يـزل ... ترضيـك رحمتـه صبـاح مسـاء
صلى عليك ومـا فقـدت صلاتـه ... قبـل الـردى وجـزاك أى جـزاء
لو كان يبلغـك الصفيـح رسـائلى ... أو كان يسـمعك الـتراب ندائـى
لسمعت طـول تـأوهى وتفجعـى ... وعلمت حسـن رعـايتى ووفـائى

---

(١) البوغاء : التربة الرخوة ، أوقرها : أحملها

كان ارتكاضي في حشاك بتـــــــا ركض الغليل عليك في أحشائي(٢)

وتلمح من خلال القصيدة شدة الفجيعة فى بداية القصيدة ، ومحاولـــة التماسك ، ومحاولة الثبات ، حتى يصل إلى قناعة الحقيقة فى النهايـــة ولا يملك إلا الدعاء لهذه الأم. هذا التدرج العاطفى فى القصيدة من بدايتها إلى نهايتها ، والذى بدأ فيه الشاعر عاطفة مضطرمة ، تبكى وتتفجع وتحـــاول التصبر وتترس بالجيوش والعتاد ، وتفاخر بالحسب والنسب ، حتى تصـــل إلى القبر فتخف هذه العاطفة وتتوزع المصيبة ، فالموت ســـيف مصلـــت على الجميع ، ولم يعد يملك الشاعر لأمه إلا الدعاء ، ولنينفعها إلا عملـــها الصالح. وهو تدرج طبيعى يعطى القصيدة وحدة داخلية وربطا طبيعيا.

أبو العلاء المعرى :

بلغ أبو العلاء المعرى خبر وفاة أمه وهو فـــى طريقـــه إليـــها مـــن العراق، فكان الوقع مؤلما، ***وراح يبكيها بمعان تفجـــر الدمـــع وتســـتثير النفس، ومطلعها:***

سمعـــت نعيـــها صمـــى صمـــــام وإن قـــال العـــواذل لا همـــــام[1]

---

[٢] ديوان الشريف الرضى جـــ ١ صـــ ٢٦ . بيروت دار صاد - سنة ١٩٨٣م

(١) شروح سقط الزند : القسم الرابع السفر الثانى : الدار القومية للطباعة والنشر صـــ ١٤١٣

والقصيدة تقع فى أربعة وستين بيتا. وهى من بحر الوافر:-
تشتت العاطفة وتجمعها :

وهكذا نرى القصيدة كاملة تعالج من بدايتها إلى نهايتها فكرة واحـــدة هي رثاء الأب . والشاعر مشغول من أول بيت إلى آخر بيت بالحديث عن الموت ، حديث المسلم به ، المؤكد على أنه لا يسلم منه أحد .

ولا نستطيع أن نضع عنوانا لكل مجموعة من الأبيـــات ، فـــهو لـــم يصف حاله مثلا وأثر الفجيعة عليه ، ثم عمد إلى أمه فمدحها ، ثم ، ثـــم ، ولكننا هنا نرى اللب الحائر والذهن المشتت ، والفكر المتبعثر مـــن هـــول المصيبة فهو فى البيت الأول قد سمع بالمصيبة الكبيرة ، وفى الثانى يعـــز عليه أن أمه قد سبقته ، وفى الثالث يكبر عليه أن يرثيها اللسان بلفظ يسلك هذه المسالك من طعام وشراب ، فهى أرفع من ذلك. وفى البيت الرابـــع يتحدث عن اثر المصيبة على نفسه ، فمع أنه يأكل علـــى أســـنانه إلا أن مرور لفظ الرثاء يهشمها ويحطمها كأن هذه النواجذ قد قذفـــت بصخـــر ، وفى البيت السادس يتمنى أن يصوغ من الشهب شعرا يرثيها به .

وفى السابع يصف حاله ويتمه، مع أنها ماتت وقد اكتهل ومع ذلـــك كأنه رضيع لم يفطم بعد ، وفى البيت الثامن والتاسع ينادى على من يبلـــغ روحها أرج السلام ذكيا مضمخا بالمسك والكافور. وهكذا نلمـــح تشـــتت

العاطفة مما يرسم صورة واضحة لتكاثف هذا التشتت وتعاضده فى تجميع هذه العاطفة المشتتة وتآلفها لرسم صورة لهذا الشتات٠

سمعت نعيها صحى صمام ... وإن قال العواذل لا همام(١)
وأمتنى إلى الأحداث أم ... يعز على أن سارت أمامى
وأكبر أن يرثيها لسانى ... بلفظ سالك طرق الطعام
كأن نواجذى رديت بصخر ... ولم يمرر بهن سوى كلامى
ومن لى أن أصوغ الشهب شعرا ... فألبس قبرها سمطى نظام
مضت وقد اكتهلت وخلت أنى ... رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيا ركب المنون أما رسول ... يبلغ روحها أرج السلام
ذكيا يصحب الكافور منه ... بمثل المسك مفضوض الختام(٢)

□ (٣)اللغة والعاطفة:-

ويسلو أبو العلاء المعرى ، ويسوق قصص هذه الحمامة التى حزنت على أخيها ، وهنا نجد لغة أبى العلاء وقد أصبحت عويصة تحتاج إلى تفسير فى كل لفظة ،مع أن الأبيات السابقة عليها كانت واضحة غير محتاجة إلى شرح٠

(١) صمى صمام : أى لا يسمع لك بذكر والمراد الداهية "صمام" أى سمعت نعيها فأصمنى وأوجعنى ، وإن قال العواذل ليس مثلك ممن يهتم ويجزع

(٢) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثانى صـ ١٤١٣

(٣) مع إيماننا بصعوبة ووعورة الألفاظ عند المعرى إلا أننا نلاحظ الفارق فى المستوى اللغوى بين أبيات الرثاء وغيرها

وقد بدأ من البيت العاشر حتى البيت الرابع عشر فى ســـــوق تلــك الأبيات الصعبة :-

١٠-ألا نبـــهنى قينــــــات بــــــث	بشـــمن غضـــى فملـــن إلى بشــــام
١١-وحماء العـــلاط يضيـــق فوهـــا	بما فى الصـــدر مـــن صفـــة الغـــرام
١٢-تداعى مصعدا فى الجيد وجــــدا	فغــال الطــوق منـــها بانفصـــــام
١٣-أشاعت قيلها وبكـــت أخاهـــا	فأضحت وهـــى خنســاء الحمـــام
١٤-شجتك بظاهر كقريض ليلـــى	وباطنــــه عويـــص أبى حـــزام

ولو رحنا نتجول خلال هذا النص فى محاولة لفهمه دون الاســـتعانة بالشروح لصعب علينا ذلك ولتعثرنا وسط صخوره. ولو رحنــــا نســـتقرأ الشروح لعلمنا أنه فى البيت العاشر وما بعده : يطلب من الحمائم الحزينــة أن تنبهه إن غفل عن الوجد والجزع حتى يكون شجوه دائما غير منقطــع ، فرب مطوقة تزاحم الوجد فى جيدها فأنتفخ وضاق عنه الطوق وانفصم فقد فقدت أخاها وهى تبكى عليه كما بكت الخنساء صخـــرا، هـــذه المطوقـــة شجتك بشعر حسن واضح مفهوم كشعر ليلى الأخيلية ، وشـــجتك بشـــعر صعب غريب كشعر أبى حزام العكلى ، وشعره كله عويص وكان يكـــثر من الغريب فى شعره فلا يفهمه إلا العلماء ، وكانت تؤخذ عنه اللغة(١) ثم تحدث أبو العلاء عن أمه مرة أخرى فعـــادت الألفـــاظ إلـــى الوضـــوح والسهولة.

(١) شروح سقط الزند : السفر الثانى : القسم الرابع صـــ ١٤٢٥

سألت متى اللقاء فقيل حتى	يقوم الهامدون من الرجام
–ولو حدوا الفراق بعمر نسر	طفقت أعد أعمار السمام
فليت أذين يوم الحشر نادى	فأجهشت الرمام إلى الرمام

وهو فى هذه الأبيات يتشوق إلى لقاء هــذه الأم ويتمنــى أن يكــون الحشر قريبا للقاء هذه الأم. ***ثم تعود اللغة إلى الوعورة وإلغاز بمصطلحات العلوم وذلك فى مثل قوله:–***

وصرفنى فغيرنى زمان	سيعقبنى بحـــذف وادغـــام

ويقصد بالحذف والإدغام ، الإزالة والإخفاء فى القبر وقد ذكر ذلـــك لتعلقه بالتصريف.

يقول البطليوسى : شبه تصريف الزمان له ونقله إياه من حال إلـــى حال بالتصريف المستعمل

ويسلو أبو العلاء المعرى ويسوق القصص ، كما ساقها أبو ذؤيـــب ، ولكن ليس بلغة أبى ذؤيب "والدهر لا يبقى على حدثانه ، ولكن بلغة أبـــى العلاء المعرى "ولا يشوى حساب الدهر ورد" ويشوى : يخطئ ، والـــورد بفتح الواو : الأسد. ***وهنا نصبح أمام جبال من الألفـــاظ وعـــرة لا تفلـــت لفظة واحدة من هذه الوعورة:–***

١٥-ولا يشوى حساب الدهر ورد	له ورد من الدم كالمدام
١٦-يغنيه البعوض بكل غاب	فريش بالجماجم واللمام
١٧-بدا فدعا الفراش بناظريه	كما تدعوه موقدتا ظلام
١٨-بنارى قادحين قد استظلا	إلى صرحين أو قد حى ندام
١٩-كأن اللحظ يصدر عن سهيل	وآخر مثله ذاكى الضرام
٢٠-تطوف بأرضه الأسد العوادى	طواف الجيش بالملك الهمام

وليست هذه هى القصة الوحيدة التى ساقها لهذا الأسد ***وإنما يتبعها بقصـة أخرى وذلك فى قوله:-***

ولا مبق إذا يسقى صدوعا غوائر فى الدكـــادك والإكــام

"لا مبق" معطوف على "ولا يشوى حساب الدهر ورد" أى ولا مبـــق و"مبق" هى الحية الذكر كثيرة السم ، صدوعا" أى تصدع الأرض وتشـقها، والغوائر : دواخل، والدكادك جمع دكداك وهى أرض مستوية فيها رمل.

والمعنى أنه لا يبقى على حدثان الدهر أسد ، ولا حية إذا مشت أبقت فى الأرض صدوعا وآثارا . ويسوق قصة هذه الحية الرهيبة ، وكيــف أنها تبقى على حدثان الزمن ، ويستمر فى سوق القصص بهذه اللغة البالغة

الصعوبة ، ***الموغلة فى التوعر والتبدى حتى يصل إلــى البيــت التاســع والخمسين فيتحدث عن أمه فى خمسة أبيات يختم بها قصيدته وعندهـــا ترجع الألفاظ إلى السهولة والرقة :-***

٥٩- ولو أن النخيل شكير جســـمى ثناه حمل أنعمك الجســـام

٦٠-كفانى ريها من كـــل رى إلى أن كدت أحسب فى النعـــام

٦١-وكم لك من أب وسم الليـــالى على جبهاتها سمة اللئـــام

٦٢-مضى وتعرف الأعلام فيــــه غنى الوسم عن ألـــف ولامِ

٦٣-سقتك الغاديات فما جـــهام أطل على محلك بالجـــهام

٦٤-وقطر كالبحار فلست أرضـــى بقطر صاب من خلل الغمـــام[1]

على أن لأبى العلاء قصيدة أخرى يتفجع فيها على أمه وفقده لــها ، وهى من بحر الطويل ومطلعها:-

خلو فؤادى بالمودة إخلال وإبلال جسمى فى طلابك إبلال[2]

[1] شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثانى صـــ ١٤٧٤

[2] شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثانى صـــ ١٦٨٥

وتقع هذه القصيدة فى عشرة أبيات ، يقول بعد هذا البيت :-

٢-ولى حاجة عند المنية فتكها	بروحى والأهواء مذ كن أهـــوال
٣-إذا مت لم أحفل أبالشام حفرة	حوتنى أم ريم بريمان منـــهال[٣]
٤-على أن قلبى آنس أن يقال لى	إلى آل هذا القبر يدفنـــك الآل
٥-دعا الله أما ليت أنى أمامها	دعيت ولو أن الهواجر آصــــال
٦-مضت وكأنى مرضع وقد ارتقت	**بى السن حتى شكل فودى أشــــكال**
٧-أرانى الكرى أنى أصبت بناجذ	ألا إن أحلام الرقاد لضــــلال
٨-أجارحتى العظمى تشبه ساهيا	يبين لها فى ساحة الفم أمثــــال
٩-وبين الردى والنوم قربى ونسبة	وشتان برء للنفوس وإعــــلال
١٠-إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما	**طوتهم شهور فى التراب وأحــــوال**

وهو يقول فى هذه الأبيات :-

خلو فؤادى من الوجد والهوى إخلال بالمودة ، والكاف "فى طلابـــك" خطاب لأمه، والمعنى إيلاء جسمى فى طلبها كالإبلال ، والشـــفاء عنـــدى لمحبتى هذا السقم واستعذابه، ولا يخفى ما فى البيت من جناس فى إبـــلاء"

---

[٣] ريم : قبر ، وريمان : اسم جبل ، منهال : من هلت التراب

وإبلال. والبيت الثانى متعلق بالأول ، هو يحس بالراحة فى السقم ، كـــأن له رغبة عند المنية أن تفتك به ، والأهواء مركب للأهوال ، تـــهلك مـــن يتعرض لها ويطلبها ، ووواضح أيضا الجناس بين الأهواء والأهوال.

وما احتفالى بالمكان الذى أموت فيه إذا مت ، يستوى عندى أن تكون حفرتى بالشام أم قبر بجبل "ريمان" منهال ترابه ، يتساقط ولا يتماسك وقـد كرر أبو العلاء هذا المعنى فى قوله:-

فلا يبك مكى لفقد حجونه بكل مكان مصـــــدع وحجـــون

والتجنيس واضح أيضا فى هذا البيت فـــى "ريـــم" ، و "ريمـــان".

والبيت الرابع مرتبط بالثالث ، يقول فيه : أننى وإن كنـــت لا أبـــالى حيث مت ولا فى أى موضع دفنت لتساوى بقاع الأرض وكـــون بعضـــها شبيها ببعض فإن لى أنسا واختيارا فى أن يدفننى أصحابى ويكون قـــبرى بين أهلى وأقاربى وبين "الآل" بمعنى الشخص و"الآل" بمعنى الأهل جنـــس تام، وفى البيت الخامس يسوق متألما خبر موت أمه ، لقد دعاه الله فلبـــت النداء ، فليتنى وقيتها بنفس وتقدمتها وكنت سابقا لها ، مهما كان حظى من الدنيا "ولو أن الهواجر آجال" فإنى لن آسف على ما يفوتنى من هذه الدنيـــا مهما حلت وطابت.

ثم يلتفت فى البيت السادس إلى أثر فقد أمه عليه ، فمع أنها قد مضت وهو فى سن الكهولة إلا أنه قد ارتد طفلا رضيعا.

ويشير فى البيت السابع إلى أنه قد رأى فى المنام أنـــه قـــد ســـقطت نواجذه وكان تأويل ذلك فقد أمه ، وهو دليل على أن أحلام الرقاد ضلال ، ليخلص فى البيت الثامن إلى توضيح هذا الضلال ، فكيف يمثل فقـــــد الأم بسن لها فى الفم أمثال؟

وفى البيت التاسع والعاشر يوضـــح الصلـــة بيـــن النـــوم والمـــوت والافتراق،بين برء النفوس وإعلالها ، ثم يوضح أن نومه أو موتـــــه هـــو الذى سيشفى نفسه لأنه سيلقى الأحبة ، بعد ما طوتهم فى التراب شـــــهور وأحوال.

ابن سنان الخفاجى :-

يقول ابن سنان الخفاجى فى رثـــاء أمـــه:-

أبكيك لو نهضت بحقك أدمع   وأقول لـــو أن النوائـــب تســـمع

لا يغبطن على البقاء مرزأ   إن المـــودع إلفـــه لمـــــودع

قبحـــا ليومـــك فـــالنوائب بعـــــده   جلـــل وكـــــل زريـــــة لا تفجـــــع

لـــو كـــان ينفعـــنى الســـلو نبزتـــه   أســـفا عليـــك فكيـــف إذ لا ينفـــــع

عجبـــا لمـــن يبقـــى ذخـــائر مالـــه   ويظـــل يحفظـــهن وهـــــــو مضيـــــع

ولغـــافل ويـــرى بكـــــل ثنيـــة ... ملقـــى لـــه بطـــن الصفـــائح مضجـــع

يا قـــبر فيـــك الصالحـــات دفينـــة ... أفمـــا تضيـــف بهـــن أو تتصـــدع(١)

ويا أرضه إن ينكسف بـــــك بـــدره ... فما برحـــــت فى الأرض تكســـف أقمـــار

ابن سناء الملك[٢] يرثى أمه:-

رثى ابن سناء الملك أمه فى قصيدة وصلت أبياتها إلى تسعة وستين ·

ومطلع هذه القصيدة:-

صـــح مـــن دهرنـــا وفـــاء الحيـــاء ... فليطل منكمـــا بكـــاء الوفـــاء

والقصيدة من بحر الخفيف ·

وقد بدأها الشاعر بمخاطبة عينه بأن تحل وكـــاء البكـــاء وأن تـــهين الدموع سكبا وهطلا ، وتهجر النوم وتمنحه لهذا الصب الذى ينـــادى مـــن يعيد الكرى ، ثم يعلن سبب هذا البكاء ، ***فقد رماه الزمان بخطـــب ودهـــاه بما صيره حزينا كئيبا يرى الغناء نواحا والنواح مثل الغناء:-***

---

(١) أنظر عصر الدول والإمارات صـــ ٧٣٣ وله ديوان مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت ، وفوات الوفيات ٤٨٩/١ ·

(٢) ابن سناء الملك: من شعراء مصر فى القرن السادس للهجرة ، ولد فى القاهرة سنة ٥٥٠ هـــ يقول عنه د شوقى ضيـــف "لا نبالغ إذا قلنا إن هبة الله بن سناء الملك أكبر شاعر عرفته مصر فى القرن السادس للهجرة: انظر الفن ومذاهبه فى الشـــعر العربى من أعظم شعراء مصر فى القرن السادس الهجرى ، وقد برع فى الرثاء، ورثى أباه وله ندب رائع فيه "تنهر دموعـــه وتنسكب وهو يذجر تقواه ونسكه ذكرى ممضة وما زال يندبه ويبكيه قائلا:-

دار المعارف ن الطبعة العاشرة صـــ٤٩٤

صــح مــن دهرنــا وفــاء الحيــــاء فليطــل منكمــا بكــاء الوفـــاء
وليــبن مــا عقدتمــاه مــن الصـــبر بــأن تحلـــلا وكـــاء البكـــاء
وأهينــا الدمــوع ســكبا وهطــــلا وهبــا أهـــن مثـــل الهبـــاء
وامنحــا النــوم كــل صــب ينــادى من يعير الكـــرى ولـــو بـــالكراء

وبعد ذلك يصور الشاعر حالته بعد أن دهته هذه الداهية ، فقد أنــاخت ركائب الهم على قلبه ، وقضى عليه بالنحيب طوال عمره ، ثم يتحدث عن هذه الأم ، فهى لم تزل تزيـــل البـــلاء وتدفعـــه عنـــه ، ***والتـــى بعـــض جودها وجوده:-***

أى عـــذر لـــد هرنـــا إذ دهـــانى بمصـــاب ألم فيـــه دهـــائى
وأرانى البـــلاء قـــد حـــل منــــه بـــالتى لم تـــزل تزيـــل بلائــــى
والتى بعـــض جودهـــا لى وجـــودى والـــتى مـــن حبائـــها حوبـــائى

ويمزج المدح بالفخر بها وبنفسه:-

قـــد تيقنـــت مذغـــدت لى أصـــلا أنـــنى مثمـــر فنـــون العـــلاء
يعذر الناس مـــن تكـــون لـــه أمـــا إذا ما إزدهـــى علـــى الآبـــاء
ويرون الصـــواب أن تنتســـب الأو لاد لا للرجـــال بـــل للنســـاء

ويأتى بصورة مفتعلة فيها من المبالغة ما يجعله مدانا مـــن الناحيـة الشرعية ، فهو يصور كثرة حسناتها ، لدرجة أن كاتب اليميـــن أصابـه الكلل والملل وراح يغفل تسجيل بعض الحسنات من الإعياء والتعب .

أتعبـت كـاتب اليمـين فكـم أغ   فـل إثباتهـا مـن بالإعيـاء

ومن الصور المبالغ فيها أيضا تمنيها الموت رغبة فى الاختباء وهو تعليـل سخيف

كـم تمنـت قـرب المنيـة دهـرا   رغبـة فى الخبـاء والاختبـاء
وقد وردت الكلمة العاميـة "يامـا"   بمعنى كثير ،وذلـك فى قولـه :
لهف نفسـى عليـك يامـا بقلـبى   منك يا طول حسرتى وعنـائى .

ويرى الشاعر أنه لا مبرر لتغيظه من الدهر ، **فالدهر مثلـه قـد أضـير بسبب وفاة والدته ، فقد أصبح قليل الضياء مما أصابه من فقدها :-**

إن غيظـى علـى الزمـان لجـهل   هو مثلـى يصـاب بـالأرزاء
قد دهاه من فقدها مـا غـدا مـن   ها قليل البـها قليـل الضيـاء

ويؤكد أن شعره قاصر عن رثاء هذه الأم ولو صاغه من الثريا ففى ضميره ما يقصر هذا الشعر عن إبرازه:-

أنت عندى أجل من كـــل تـــأبين	ولـــو صغـــت بالثريـــا رثـــائى
فى ضميرى ما ليس يبرز شـــعرى	لا ولو كنـــت أشـــعر الشـــعراء

ويتجه إلى مخاطبة القبر ، وقد ضم السنى والسناء والبدر داعيا إيـــاه أن يترفق بها ، فقد حوى من الطهر ما جعله يحاكى مسجد قباء ، ***ولذا فله حجه وهجرته ولمن فيه الثناء والمدح والدعاء:-***

فـــاحتفظ أيـــها الضريـــح بـــــدر	صرت من أجله كمثل الســـماء
وترفـــق بـــه فـــــإنك تســـدى	منــــه جمـــة إلى العليـــــاء
أنت عندى لما حويت مـــن الطهـــ	ـر يحـــاكيك مســـجد بقبـــاء
لك حجـــى وهجرتى ولمن فيـــ	ـك ثنائى ومدحتى ودعائـــى

ثم يتجه إلى أمه طالبا منها أن تشفع له يوم القيامة لئـــلا يعـد فـــى الأشقياء، ***فالجنة تحت أقدامها:-***

أذكريـــنى يـــوم القيامـــة يــــا أم	ـمــ لئـــلا أعـــد فى الأشـــقياء
واشـــفعى لى فجنـــتى تحـــت أقـــدا	مك من غير شـــبهة وامـــتراء

وأخيرا يختم قصيدته بالدعاء أن يعجل الله له اللقاء بأمـــه فالحيـــاة مثل الداء والموت هو الدواء:-

عجـــل الله راحـــتى مـــن حيـــاتى	إنها فى الزمـــان أعظـــم دائـــى
وإذا ما الحيـــاة كانـــت كمثـــل الدا	ء كان الممات مثل الدواء(١)

---

(١) ديوان ابن سناء الملك صـــ ٦

الرثاء وتصنع ابن سناء الملك:-

كان ابن سناء الملك يميل إلى السهولة فى شعره ، مع تحليته بـــألوان التصنيع[٢] وتلحظ هنا فى قصيدته إصراره على الجناس والطباق فى كـــل بيت تقريبا، فلا يخلو بيت من محسن بديعى.

فى البيت الأول جناس بين وفاة ، وفاء وفى البيـــت الثـــانى طبـــاق بيـــن "عقدتماه" ، "وتحللا" وفى الثالث جناس بين"هبا" ، "وهباء"، وفـــى الرابـــع جناس بين"الكرى" ، "والكراء"، وفـــى الخـــامس جنـــاس بيـــن"خطـــب" ، "خطباء"،وفى السادس جناس بين "أعزاه" ، "عزائى"، وفى الســـابع طبـــاق بين"غناء" ، "نواح"، وفى التاسع جناس بين"تحيى" ، "تحبـــه"، ونلاحـــظ أن البيت الثامن قد خلا من المحسن البديعى ، وقد علق شارح الديوان علـــى هذا البيت أنه غير موجود فى النسخ الأخرى ، فى البيت ١٢ جناس بيـــن فناءى و "ثنائى"، وفى البيت ١٤ جناس بين سماء ودماء، وفى البيـــت ١٥ جناس بين البلوى والنعماء، وفى البيت ١٦ جناس بين دهانى ودهائى.

وهكذا إلى نهاية القصيدة كل بيت لا يخلو من محســـن مـــن هـــذه المحسنات ومن هذه المحسنات ما جاء طبيعيا دون تصنع مثل قوله:-

والتى بعـــض جودهـــا لى وجـــودى	والتى مـــن حبائـــها حوبـــائى
قد تيقنت مذغدت لى أصـــــــلا	أننى مثمر فنون العـــــــلاء

[٢] الفن ومذاهبه فى الشعر العربى صـــ ٤٩٦ ، الطبعة العاشرة

ومنها المتكلف وهو كثير ومثاله:-

وليبن ما عقدتماه من الصبر بأن تحللا وكاء البكاء

فقد اضطر من أجل الطباق بين عقدتماه وتحللا ، أن يجعل للصبر عقـــدا ورباطا ، وأن يجعل للبكاء وكاء.

وكذلك فى قوله:-

وأنا خت ركـــائب الهـــم فى قلـــبى ولم تحتشـــم لطـــول الثـــواء
ثم آلـــت ألا تفـــارق ربعـــى وفنـــاءى إلا عقيـــب فنـــائى

فقد أراد أن يطابق بين فناء الدار والفناء بمعنى الانتهاء ، فزاد بعـــد الربع كلمة "***وفناءى***"

وقوله:-

وأرادت حجب الثرى ليت شعرى من دعا للثرى بهذا الثراء

فقد أراد أن يطابق بين الثرى والثراء ، ***مع أنه لو قال*** : " من دعـــا للثرى بهذا الدعاء. أو الهناء لكان أجدى لأنه ليس هنا ثمة ثراء وإنما هنـــا مكانة ورفعة وطيب ونور. ولكنه القصد المتصنع إلى الطباق".

وقد أثر ولوعه بمصطلحات العلوم وتضخيمها فى شعره على هـــذه القصيدة ، وهو يقول:-

فهو فى الميتين يحسب حقا ومجازا يعد فى الأحياء

كشاجم[1]

وأبو الفتح كشاجم من شعراء الطبيعة ، وقد رثى أمه بتلك الأبيـــات التى يصور فيها رفضه للراحة وللعيش الظليل بعد فقد أمه،وأنـــه ســيقابل ***إرضاعها له فى الصغر بإرضاع قبرها من دمعه:-***

أبعد مصـــاب الأم ألـــف مضجعـــا وآوى إلى خفض من العيش أو ظـــل؟
سترضع عينى قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعى ومن حملى

ويرسم صورة ظريفة فيجعل موتها قبله فيه سلامة من الثكل وإحساسها به ، ويصور ذلك فيقول:-

فأقســم لــو أبصرتـــنى عنـــد موقـــا وعينى تسح الدمع سجلا على ســـجل
رثيــت لعضــل يــأخذ المـــوت جفنـــه وأعجبت من فرع ينوح علـــى أصـــل
يــهون مـــن وجـــد وليـــس بهـــين سلامتها بالموت مـــن جرعـــة الثكـــل
وكـــان عليـــها أن أقـــدم قبلـــها أشـــد وأدهـــى مـــن تقدمـــها قبلـــى
فقد فديت من غمها بى بحسرتى عليها وفيما بين ذلك ما يسلـــى(٢)

---

(١) أبو الفتح محمود بن الحسين السندى ، المعروف بكشاجم ، كان يعمل منجما ورئيسا للطباخين فى بلاط سيف الدولة ، قيل أنه هو الذى نحت هذا اللقب دلالة على نواحى فضله ، فالكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب، والجيم من جواد ، والميم من منجم. توفى كشاجم سنة ٣٥٠ هـــ وقيل سنة ٣٦٠ هـــ. ينظر فى ترجمته :شذرات الذهب ، لابن العماد ٣٨:٣ ، وله ديوان حققه د/النبوى عبد الواحد شعلان ، مطبعة الخافجى.

(٢) ديوان كشاجم : تحقيق د/ النبوى عبد الواحد شعلان مطبعة الخانجى طبعة أولى


الفصل الأول
دراسة موضوعية

الدراسة الموضوعية

حفلت قصيدة الرثاء في أدبنا العربي الحديث بفيض من العاطفة، مما جعل الموضوعات تتشقق وتتفرع ، وقد سلك كل شاعر في التعبـــير عـــن عاطفته مسالك شتى ودروب عديدة ، ربما اتفقت هـــذه الـــدروب وتلــك المسالك عند بعض الشعراء ، وربما تفرد أحدهم بمسالك أخرى ٠

ومن هذه الموضوعات التي اشترك فيها الشعراء :-

المدح :-

من الطبيعي أن يلتفت الشاعر إلي أمه وهو يرثيها، فيتحـــدث عـــن أفضالها وصفاتها ويعدد هذه الصفات ، فالمدح في قصيدة الرثـــاء تعـــداد لخصال المرثية مع فارق بسيط ، وهذا الفارق مع بســـاطته مـــهم جـــدا، فالشاعر لا يمدح تلك الأم ويعدد صفاتها و محاسنها ليعرف الناس تلك الأم بعينها، ويعرفوا فضلها ودورها، كتعداد محاسن زعيم أو عظيـــم ليســـجل للناس فضله، في رثاء الأم لا يقصد الشاعر ذلك ، وإنما هو يبكى في أمـــه هذه الصفات ، فهو لم يفقد جسدا، وانما فقد تلك المعاني السامية المتجســـدة في هذه الأم ، مع اعتراف البحث بأن بعض الشعراء قد عـــددوا محاســـن الأم بقصد الافتخار وتعريف الناس بقدرها وفضلها٠

فمن هذا اللون الذي يفتخر به الشاعر وهو يمدح تلك الأم قصيـــدة شوقي في رثاء أمه :-

لئن فات ما أملته من مواكب	فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
رثيت به ذات التقى ونظمته	لعنصره الأذكى وجوهره الأسمى
نمتك مناجيب العلا ونميتها	فلم تلحقي بنتا ولم تسبقي أما [(١)]

والشاعر هنا يمدح تلك الأم بأرومتها وعنصرها الطيـب وبـهؤلاء الأجداد العظام الذين هم بالضرورة أجداده . وعنصر الفخـر بـالأصول والجدود عنـد شـوقي تكـرر فـي رثـاء الشـاعر لجدتـه أيضـا ، ***وذلك عندما قال :-***

(١) ديوان أحمد شوقي جـ٢ صـ٥٣٦ . توثيق وتبويب د /أحمد الحوفي دار نهضة مصر

صلاة الله يا تمراز تجزى ... ثراك عن التلاوة والصلاة
بررت المؤمنات فقال كل ... لعلك أنت أم المؤمنات
وكانت في الفضائل باقيات ... وأنت اليوم كل الباقيات
تبناك الملوك وكنت منهم ... بمنزلة البنين أو البنات
يظلون المناقب منك شتى ... ويؤون التقى والصالحات
وما ملكوك في سوق ولكن ... لدى ظل القنا والمرهفات
عننت لهم بمورة بنت عشر ... وسيف الموت في هام الكماة
فكنت لهم وللرحمن صيدا ... وواسطة لعقد المسلمات
تبعت محمدا من بعد عيسى ... لخيرك في سنيك الأوليات [٢]

ونلاحظ هنا أن شوقي يفتخر بهذه الجدة، وهو معنى ببيان أنـــها لـــم تؤسر عن رق، وإنما وقعت أسيرة فـــي الحـــرب، فـــهي ســـليلة رجـــال شجعان، وأن أسرها كان نعمة لدخولها فـــي الإســـلام، وشـــوقي وهـــو يعارض المتنبي ويتبع خطاه في رثاء جدته، راح يقلده في الفخر بجدتـــه، وهو يتحدث عن نفسه وعن الجدة ، ففخر بهما وبأصولهما وجدودهمـــا ، وفخر بنفسه بعد ذلك. فإذا قال المتنبي عن جدته.

ولو لم تكوني بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لي أما

---

[٢] ديوان أحمد شوقي جـ٢ صـ٤٠٠

قلده شوقي في رثاء جدته وذلك عندما يقول :-

ولم لم تظهري في العرب إلا بأحمد كنت خير الوالدات

**** المدح بالتقي والصلاح :-***

ومع عنصر الفخر بالأصول والأجداد في رثاء شوقي لجدتـــه وأمـــه فأنه لم يهمل عنصر المدح بالتقوى والصلاح والصلاة ، فصلاة الله تجزيها عن صلاتها وتلاوتها للقرأن وعن هذا العمر المديـــد التـــي قضتـــه فـــي الإحسان والبر .

وكذلك نجد خليل مطران في رثاء جدته لأمه ، تلك القصيدة التي عنـون لها بقوله (الجدة هي سيدة فاضلة حسيبة نسبية ، بلغت المائة من عمرهـــا وكانت إلى أيامها الأخيرة تكسو مما تحوكه وتوشـــيه حفداءهـــا الكـــثرة) ***والتي يقول فيها:-***

قد كنت أما وزوجا في الناس خير المثال

وما عرفت بغير التقوى وحسن الخلال

لم ينقطع لك جهد في صالح الأعمال

في كل يوم تجد دين آية من نوال

وآنا ببيض أياد تسدى وآنا بمال

وإبرة لك فيها آيات سحر حلال

صرفتها في ضروب   من برك المتوالي [١]

والشاعر يشير إلى خلال هذه الجدة الطيبة التـــي عرفــت بـــالتقوى وحسن الصفات وواصلت جهدها في الأعمال الصالحة ، ومديد المســـاعدة بالمال أحيانا ، وبأعمال الإبرة التي يرغب فيها والتي صرفتها في ضروب من البر وكساء النساء والأطفال • وقد نال هو نفسه من هذه الأثواب مـــا ***جعله في أبهى زينة:-***

كم حكت سترا ودفئا   لنسوة وعيال

وصغت في سعة الوقت زينة للأل

لقد أصبت نصيبا   من ذلك الأفضال

ثوب كأنك فيه   نسجت لمح اللألى

أعاد لي من فوات   نضارتي واختيالي

تالله إن أنس لا انس طيب تلك الأفعال [٢]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه راح يذكر لها فضلها في صياغــة القصص وحكايتها وهى تصوغ الحقيقة موشاة بالخيال الرائع :-

ولا أحاديث أوعت   محاسن الأقوال

(١) ديوان الخليل جـــ٢ صـــ٥٤٤

(٢) ديوان الخليل جـــ٢صـــ٥٥٥

في كل وقت لها موقع وفى كل حال

زانت بديع حالها مضارب الأمثال

ورائعات الأقاصيص عن عصور خوال

مما الحقيقة فيه تزهى بثوب خيال [1]

وقد نجد مدحا عاما لا يقف عند صفة من الصفات بعينها ، وذلـــك كما في قصيدة خليل مطران في رثاء أمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظائم النعم [2]

كذلك في قول حسن عبد الله القرشي :-

كنا بظلك نتقى لفح الأعاصر والكروب

ونرد عادية الزما نبدرعك الواقي المهيب [1]

من الشعراء الذين تحدث عن فضائل الأم عامة ، وعن كل أم فـــي شعره ، ومن هؤلاء الشعراء إبراهيم عبد الفتاح(٢) وذلـــك فـــي نهايـــة قصيدته :-

الأم أعظم لفظة رددتها جمعت معان في الحياة سواميا

---

(١) ديوان الخليل جـــ٢ صـــ٥٥٥

(٢) ديوان الخليل جـــ٣ صـــ٢٤٧

(١) ديوان حسن عبد الله القرشي المجلد الثاني صـــ٢٤٣

الأم أول من نطقت لها اسمها ... وأبوك مهما جل كان التاليا (٢)

لفظ نما معناه في أذهاننا ... بنموها فغدا عظيما ساميا

لا يسأم الإنسان عن ترداده ... طفلا صغيرا أو عجوزا واهيا

مهما كبرت فأنت طفل عندها ... تولى حياتك حبها المتواليا

ما فوق حب الأم حب يرتجي ... فاحفظ لها الحب العظيم الوافيا

لا خير في الدنيا إذا لم ترعها ... أم تحيل العيش فيها هانيا

الأم تمسح بالحنان يمينها ... أحزان من يشكو الزمان العاتيا

هي رحمة الله الرحيم بخلقه ... وضياء نجم لم يزل لك هاديا

الأم أيكه نعمة تهدى لنا ... أغصانها ثمرا وظلا ضافيا

الأم روح للوجود لطيفة ... والجسم لولا الروح يمسي فانيا

الأم قلب الكون ينبض دائما ... ليفيده دمه الجديد القانيا

---

(٢) ديوان ومضات فكر ونبضات قلب .ديوان جديد للشاعر إبراهيم عبد الفتاح طبعة أولى سنة١٩٩٠م دار الصفا للطباعة والنشر .صـــ١١٤ .والشاعر إبراهيم عبد الفتاح من مواليد أغسطس سنة ١٩٠٩م في ديرب نجم شرقية ، وهو خريج دار العلوم العليا سنه ١٩٣٥م ،اشتغل مدرسا وناظرا وموجها للغة العربية بالإعدادي والثانوي وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٦٩م .طبع له سنة ١٩٤٧م ديوان " من وحي الدعوة الإسلامية ، وله ديوان " ومضات فكر ونبضات قلب "

للأم أجنحة نواعم ريشها حضنتك طفلا صاحيا أو غافيا

وجناح رحمتها احتواك ببره وحنا عليك قوادما وخوافيا

الأم مثل الأنبياء رسالة وكجندهم في الصالحات تفانيا

الأم نبراس يضئ شعاعه سبل الحياة فليس يترك داجيا

الأم عين لا تنام مع الدجى إن بات ليلك ساهرا أو شاكيا

ترعاك طفلا في الحياة وناشئا ودعاؤها يرعاك كهلا فانيا

في الملعب المحروس رفرف حبها ورعاك أياما بها ولياليا

هي من سماء الحب أكرم مزنة سقت الثرى فنما وطاب مجانيا

هي كالربيع كسا الحياه جمالها وأجل منه على الحياه أماديا

ما من نبوغ يلفت الدنيا له إلا إليها ينتمي متباهيا

إن تلتمس سببا لرفعة أمة تبصر مقام الأم فيها عاليا [1]

---

[1] ومضات فكر ونبضات قلب :صـ١١٦

فهذه المقطوعة في الأم ، وان كانت تشكل في نفسها لوحة رائعـــة ، إلا أنها مقحمة على قصيدة الرثاء ، ويبدو أن الشاعر نظمها بعد أن نظـــم قصيدة الرثاء وألحقها بها.

***حنان الأم وعطفها على ولدها :–**

وهو عنصر من العناصر التي طغت على قصيدة الرثاء بالنسبة للأم.

ومن الملاحظ أن الشاعر عندما يرثى أمه يتحدث عن فقده لحنانـــها وعطفها وبرها ، والدعاء والتطبيب والتعويذ. وهذا إن دل فإنما يدل علـــى عظيم عطاء الأم.

ومن النماذج الدالة على ذلك رثاء الشاعر إبراهيم عبد الفتاح لأمـــه والتي يقول فيها مقدما لقصيدته (عندما صعدت روحها الطاهرة إلى ربـــها سقط قلبي من أضلعي ورأيتني طفلا في حاجة إلى حنان أمه) [١]

وهو يبدأ القصيدة مشعرا لنا أنه شيّع حنان أمه في الثرى :–

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا	قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي في الثرى	ووضعت في الغبراء كنزا غاليا

(١) المرجع السابق صـــ١١٥

والقصيدة كلها لحن نازف معبر عن الفقد لحنـــان الأم وبرهـــا وعطفـــها ورأيـــها ومؤاساتها :-

أنا لست أنسى منك برا حانيا	أسو الجراح به ولفظا شافيا
أنا لست أنسى منك رأيا صائبا	ألفى له ما كنت قبل رائيا
قد كنت آسي بالجراح فأن أتت	أمي رأيت بها الطبيب الأسيا
يا أم كنت مثابة لسعادتي	وسناك كم أجلى ظلام شقائيا
مهما علت سني أراني دائما	طفلا بجنبك ضاحكا أم باكيا

وحتى عندما يذهب الشاعر زائرا لقبر هذه الأم فإنه يأمل أن يجد هنـــاك الحنان والدعة والسكينة التي كان يجدها في حياة أمه ، وهو واثق أن برّها لا يزول بموتها ،وأن حنانها لا ينقضي بسكونها القبر :-

كم جئت مثواك الأخير محدثا	روحا أحب حديثها ومناجيا
استلهم الرشد الذي عودتني	وأبل في صدري فؤادا صاديا
أيحس قلبك بارتياح عندما	آتى ضريحك مستمدا داعيا
أيفيض قلبك بالحنان كعهدنا	بجناحه أم صار قلبا قاسيا
حاشا لبرك أن يقل على المدى	حاشا لقلبك أن يرى متجافيا
إني أكاد أحس نبض فؤادها	في قبرها إن جئت أشكو حاليا [١]

[١] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

إن الشاعر يحن إلى حديثها ومناجاتها ، فيروح إلى قبرهـــا يســتلهم الرشد ، ويبل صدى القلب • فهل تحس هي به ؟ كما يحس بـــها ؟ هــل تحس بارتياح عندما يأتى إلى ضريحها ؟ هل يفيض قلبها بالحنان كالعـــهد به دائما ؟ حاشا لهذا البر المتدفق أن يقل ، ولـــهذا المعيـــن أن ينضـــب بمرور الأيام ، وحاشا لهذا القلب الحاني أن يرى متجافيا ٠إنه بحس بنبض فؤادها في قبرها كلما جاء يشكو حاله.

ويصور فريد عين شوكه [٤] فقده لهذا الحنان والدعاء ، والســؤال عن الطعام والشراب ، والوداع في الرحيل واللقاء في الإياب ، وقد تحول هذا كله إلى ذكريات بعيدة فقدها بموت الأم :-

أين منى حنانها يسعد الروح — وينفى عن خاطري كل هـــم ؟

أين منى دعاؤها بركـــــات — تتوالى من السماء وتهمــــي ؟

أين منى سؤالها عن طعامـــي — وشرابي وقيامي ونومي ؟

أين منى حنانها للقائي — إن تغيبت ساعة دون علمي ؟

أين منى وداعها في رحيلي — بالأماني التي تجدد عزمـــي ؟

أين منى لقاؤها في إيابي — بالتهاليل حين أهتف باسمـــي؟

---

(٤) الرسالة صـــ١٨٧ السنـــــة ١٥ المجلد الثاني

وهكذا يسوق الشاعر كل هذا العطاء اللامتناهى في حلـــه وترحالـــه ويقظته ونومه وطعامه وشرابه في صور متلاحقـــة توحـــي بفيــض الأم وعظيم حنانها وحدبها على ولدها.

ويصور الشاعر سهر الأم على تمريضه والعناية به،وهـــى تســـكب الدموع ألما وحزنا عليه ، فإذا ما استيقظ حبست الأم دموعـــها وقابلتـــه بوجه بفيــض بشـــرا ٠فهى تتـــألم مـــن داخلـــها ولا تريـــد أن تشـــعره بهذا الألم :-

أين منى صدق الفداء إذا ما	مسني في الحياة أيسر سقم
تسهر الليل وهى حولي ولهى	تذرف الدمع في خفاء وكتم
فإذا ما انتبهت فهي تلاقيني	بوجه مستبشر غير جهم
وتروى جوانحي بأماني	ى عذاب تنفى ظنونى ووهمى
وتصوم النهار عن كل زاد	غير ما يمسك الرماء ويحمى
ومناها لو أنها تفتدينى	بالذى يبتغى الفداء وترمى

إنها لا تطببه ولا تمرضه فقط، إنها لشدة إشفاقها عليه تتمنـــى لـــو أفقدته بروحها٠

ويصور محمد الهراوى تلك اللهفة من الأم علـــى ابنـــها والحـــرص عليه، فهو إذا غاب باتت تتلهف على أخباره ، وســـــهرت تســـائل النجـــم

الساري في لهفة وحيرة عن ابنها ، وهى تزود عنه الأحـــداث ، وتجــود بروحها إذا افتقر ، وإن مسه سقم لازمته حتى يذهب عنه هـــذا الســقم ، وهى تدارى سقمها حتى لا تحزن ولدها ، ولو استطاعت إخفاء موتها عنـه لفعلت ذلك • ويطلق الشاعر زفرة حزن وأسى ورحمة لهؤلاء الذين فقـدوا أمهم ، *فلا حنان بعد حنان الأم* :-

فقدت التي كانت إذا شط بى النوى	تسائل عنى في الدجى ساري النجم
وإن ترمني الأقدار منها بحادث	تلقفه عنى على الروح والجسم
وإن تربت كفى تجود بروحها	مخافة ما لم أحتمله-من العدم
وإن مسني سقم ثوت عند مرقدي	لزاما فلم تبرحه إلا مع السقم
على أنها والسقم يبرى عظامها	تحاول أن تخفيه عنى بالكتم
ولو أنها اسطاعت لأخفت حمامها	وقد حم إشفاقا على من الضيم
فيا رحمتا للفاقدى أمهاتهم	من الناس مثلى أو من الطير والبهم
فإن الحنان الحق في الأم وحدها	وغير حنان الأم ضرب من الوهم [1]

وترجع الشاعرة وفاء وجدي بالذاكرة إلى الوراء، لقد رحلـــت الأم، فكأن شيئا ما كان ، وكأنها ما كانت يوما ما تعشش على أفراخها، وكأنـــها

[1] الرسالة : السنة الثالثة ، العدد ١٢٨سنه ١٩٣٥ صــ٢٠٢٧ "واماه"

ما كانت دفئا في برد الشتاء ، ومنحة من الله ونفحة طيب علويـــة ، لقـد فقدوا بفقدها الرحمة والحب .

ورحلت كأنك ما كنت لنـــــــــــا
عشا للأفراخ المهجـــــــــــــورة
وكأنك مــــــــا كنت لنـــــــــا
دفئا يتسلل عبــــــر ليالينا المقـــرورة
ورحلت كصبح بدده صبح مغتـــــــر
يا وشوشة العصفور على صدر الفجر
يـــــــا نفحة طيب علويـــــــة
يا منحة من أعطانا فيك الرحمة والحب
وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب [٢]

* حكمة الأم :-

كثير من الأمهات غير متعلمات ، ومع ذلك فهى تتصرف بوحـــى مـــن الإلهـــام وضرب من فطرة الأمومة الذاتية ، وقد صور ذلك الإلهام وتلك الحكمـــة كثـــير مـــن *الشعراء* :-

من غير علم تنطقين بحكمـــة ... كالوحى كالإلهام يشرق هاديـــا
للأم الهام عجيب كاشـــــف ... للغيب يطلع الأمور كما هيــــا
إلهامها وحى إلاله لروحهـــا ... تلقاه فى الظالمات يهدى الساريا
يا من يفاخر بالعلوم وفضلها ... ويرى لها النور المبين الزاهيـــا

[٢] ديوان : الرؤية فوق الجرح ،وفاء وجدي صـــ٣٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٨٨ م

العلم ليس من المدارس وحدها خذ من حنان الأم علما صافيا
علم بلا قلم يخط وحكمـــــــة خشع الزمان لها وأنصت واعيا [1]

يالها من لوحة رائعة رسمها هذا الشاعر لتلك الأم التى تنطق بلا علـــم إلا هـــذا الإلهام الذي يشرق بالحكمة ، وهو إلهام عجيب كاشف للغيب ، ولا عجب في ذلـــك فهذا الإلهام بمثابة الوحي من الله سبحانه وتعالى. ويضع علم هــذه الأم بجــانب علــم المدارس التي يفاخر الناس بها ، هو علم بلا قلم وبلا تعلم ومع ذلك كم خشع الزمـــان وأنصت ووعى لهذا الإلهام من تلك الأم .

ويصور محمد الهراوى "هذه الأمية" التي لا تغضي من قدرها ولكنها ترفعها فــوق ذوى العلم :-

وأمية كانت ولكن رأيهـــا لــدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم [2]

مرض الأم :-

لكل قصيدة رثاء ظروفها الخاصة ، وإذا كانت الأم قد تعرضت قبل موتها لمـــرض عانت منه وقاست ، فإن القصيدة تحمل هذه المعاناة وتصورها، *وقد مرضت أم عائشـــة التيمورية مرضا شديدا صورته الشاعرة وهى تبكى أمها وهى تسوق ذلك في ألم وتحســر على ما أصاب تلك الأم:*

قد خانها الدهر الملـــم فأصبحت لكؤوس أسقام الضنى تتوجع
ذاقت مرير السقم من عهد الصبا حتى قضت أيامها تتوجــــع

---

[1] الرسالة صــ٢٠٢٧ من السنه الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثانى العدد

(٢) وأماه : لمحمد الهراوى الرسالة :صــ٢٠٢٧ السنة الثالثة المجلد الثاني عدد ١٢٨

رحلت وقد أفنى النزيف دماءهـــا	والقلب فى حسراته يتصدع
كم من طبيب لم يكل وطالمـــــا	داوى ولكن داؤها يتفـــــرع
كم ليلة باتت تساهر نجمـــــــه	وتئن مما قد حوته الأضالــع
حتى أتى أمر الإله لها ادخلـــــى	لحدا وأمر الله لا يترجـــع [١]

ونلاحظ أن الشاعرة قد عكست ما تعانيه الأم وما تتجرعه مـــــن الأم بســـبب مرضها ، ولكنها لم تصور لنا أثر هذا المرض وهذا التوجع فى نفس الشاعرة.

ويصور الهراوى سقام أمه ومرضها ومعاناتها ومع ذلك فهى تكتم الالأم حــــتى لا يراها ابنها فيتعذب لعذابها ويتألم لالأمها ، وهذه الأم لو استطاعت أن تخفى موتها عــــن ابنها لفعلت ذلك :-

على أنها والسقم يبدى عظامهـــا	تحاول أن تخفيه عنى بالكتم
ولو أنها اسطاعت لأخفت حمامها	وقد حم إشفاقا على من الضيم [٢]

@ *شكوى الزمان :-*

تقول عائشة التيمورية :-

يا منهل التشتيت حسبك ما جرى	فعيوننا قد أقسمت لا تهجع
ما بال هذا الدهر يفجع بالأســـى	ألبابنا ولكم بحزن يفجـــع [١]

---

[١] حلية الطراز صـــ٣٠

(٢) الرسالة صـــ٢٠٢٧ من السنه الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثانى العدد

[١] حلية الطراز صـــ٣٠

والشاعرة تبدأ قصيدهّا بالتململ من الزمان وأفعاله ، هذا الدهر الــــذى يفجــع بالأسى ، ولذا فهى تطلب من الدهر أن يكف عن التشتيت ، وكفى ما جرى. *وكذلــك فعل الشاعر أحمد شوقى عندما بدأ قصيدته بشكوى الزمان إلى رب الزمان :*

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما   أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى

ويصارع الزمان و يجالده بقوله :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقع   لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما
وقدرت للنعمان يوما وضده   فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى
شربت الأسى مصروفة لو تعرضت   بأنفاسها بالغم لم يستفق غمــــا
فأترع وناول يا زمان فإنما   نديمك سقراط الذى ابتلع السمــــا
قتلتك حتى ما أبالى أدرت لى   بكأسك نجما أم أدرت بها رجمــــا

ومع أن شوقى هنا يفتخر بمجالدته للزمان وأنه لم يعد يأبه به بعد أن عود نفسه على تحدثانه ، فإنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما فعل الزمان به ، ويجأر بالشكوى من شربة الأسى من هذا الزمان •

وهو يعزف هذا اللحن الشاكى من الزمان فى رثاء جدته ، مصورا مهد المرء فى أيدى الرواقى بنعش المرء بين النانحات ، والوليد والمعمر سواء فى أذى *الزمان فالدنيا قتال وهم مقاصد لهذا الزمان الذى يرميهم بنوائبه :-*

ومهد المرء في أيدى الرواقي   كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكــاء   فهل يخلو المعمر من أذاة ؟
هى الدنيا قتال نحن فيــــــه   مقاصد للحسام وللقنــــــاة
وكل الناس مدفوع إليـــــــه   كما دفع الجبان إلى الثبــات
نروع ما نروع ثم نرمــــــــى   بسهم من يد المقدور آتـــــى

*ويتمنى الهراوى لو كان الزمان قد توقف به عند أيام الطفولة ، **فخطاه تقودهم إلى النهاية وإلى القطيعة والانصرام** :-*

ويا ليت لم يقطع بنا الدهر شوطه فإن خطاه للقطيعة والصرم

وهذا الزمان تبدى فى صورة ليل مريب تلظى بالرزايا والنـــدوب، فحطـــم الأمال وحولها إلى أشباح :-

أنت الغد المنشود ها قد عاد كالأمس الكئيب
وتراءت الأمال اشـــ باحا ليل مريـــــــــب
ليل تلظى بالشجــــو ن وبالرزايا والنـــدوب

والشاعر البردونى يصور ذاك الزمان الذى خلفته أمه وودعته وهو زمـــان ممتلـــئ بالجور والغى والخراب والسيف والقنبلة والحرب ولمع الحـــراب ، زمـــان هـــو القيـــد والسوط والظلم :-

تركتنى للشقا وحدى هاهنا واستراحت وحدها بين التراب
حيث لاجور ولا بغـــى ولا ذرة تنبى وتنبى بالخــــــراب
حيث لا سيف ولا قنبلــــة حيث لا حرب ولا لمع حـــراب
حيث لا قيد ولا ســــــوط ولا ظالم يطغى ومظلوم يحابى (١)

**** تمنى الفداء:-***

وتمنى الابن فداء الأم من الصور الشائعة فى قصيدة الرثاء. فعائشة التيمورية تتمنى أن تودع روحها مع وداع الأحبة ، وتتمنى أن تفديهم

(١) ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول صـــ١٣٨

بروحها ولكن إرادة المولى نافذة ، وهى عاجزة لا تدرى ماذا تصنع أمام إرادة الله:-

ذهب الأحبة واستقل ركـــابهم ... ياليت روحـــى ودعـــت إذ ودعـــوا
ياليتهم طلبـــوا الفـــداء فـــهذه ... روحى ولكن ليـــت ليســـت تنفـــع
وإرادة المـــولى تعـــالى شـــأنه ... حتمت لنا هـــذا فمـــاذا نصنـــع[٢]

ويؤكد هذا المعنى أيضا الشاعر حسن القرشى ، فهو يؤكـــد أنـــه يسخو بالجوانح والقلوب ويبذل روحه يتقى بها بطش الردى:-

لو تفتديـــن ســـخا الفـــدا ... ء مـــن الجوانـــح والقلـــوب
وبذلت روحى أتقـــى ... بطش الردى عند الوثوب[٣]

على أن هناك من الشعراء من تمنى أن يموت قبل هذا اليوم ، وأن يكون مكان أمه فى القبر:-

لا أطيق الحياة بعد نواها آه ، ... يا ليت يومها كان يومى[١]

وشاعرة أخرى تصور الموت وقد تسلل فى وضح النهار ، وهى ما درت أن هذا الزائر يأتى فى وضح النهار ، ولو درت ذلك لسدت بقلبها كل ثقوب النور ، ولتشبثت بالظلام حتى لا يأتى النهار ومعه الموت:-

---

(٢) حلية الطراز صـــ ٣٠

(٣) ديوان حسن عبد الله القرشى المجلد الثانى صـــ ٢٤٣

(٢) الرسالة : السنة ١٥ المجلد الثانى عدد ٧٤٧ صـــ ١٨٧

لكن ما عن لنا أن يأتى زائرك المكروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر
لو أدرى أن الظهر يخون
لسددت بقلبى كل ثقوب النور
لتشبثت بساعات الليل الظلماء

بل إن الشاعرة لترسم صورة أخرى للفداء وهى مصاحبة الأم فى رحلتها ، فلو أنها وهى تعانقها كانت تدرى أن هذا هو عناق الوداع، إذن لصهرت ضلوعها بين ذراعى أمها ، وعششت بصدرها ، ومضت معها إلى حيث تكون:-

لو أدرى أن عناقك لى فى تلك الليلة
كان عناق وداع
لصهرت ضلوعى بين ذراعين وعششت بصدرك
ومضيت إلى حيث تكونين أكون ..
لو أدرى [٢]

وفى قصيدة الشاعر عبد الله البردونى ، وقد كان مكفوف البصر وكانت أمه هى التى تطعمه وتسقيه ، وتأخذ بيده فى الطريق، جاءت هذه الصور ميثوته فى قصيدة الرثاء

كيف أنساك وذكراك على سفر أيامى كتاب فى كتـــــاب
إن ذكراك ورائى وعلـــى وجهتى حيث مجيئى وذهابـــى

[٢] ديوان : الرؤية من فوق الجرح : شعر وفاء وجدى صـــ٣٢

كم تذكرت يديك وهمـــا في يدى أو فى طعامى وشرابى
كان يضنيك نحولـــى وإذا مسنى البرد فزنداك ثيابـــى
وإذا أبكانى الجوع ولـــم تملكى شيئا سوى الوعد الكذاب
هدهدت كفاك رأسى مثلما هدهد الفجر رياحين الروابـــى
كم هدتنى يدك السمر إلى حقلنا فى الغول فى قاع الرحاب (١)

وفى قصيدة الشاعر محمد الهراوى ، يجعل الأم غنـــاء عـــن الأب والأبنـــاء والخال والعم :-

فان قلت يا أماه أغنانى اسمها عن الأب والأبناء والخال والعـم

ويقارن بينها وهى الأمية وبين المتعلمين فيجعل رأيها فوق رأيهم:-

وأمية كانت ولكن رأيهـــا لدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم (٢)

وحسن عبدا لله القرشى يجعل من جوانحه وضلوعه سكنا لأمه بدلا من القـــبر ومثوى لها:-

فى عمق أعماقى برو حى فى الحنايا فى الوجيب
مثواك يا أمـــاه لا فى ظلمة الجدث الرهيب (٣)

وإذا كان جل الشعراء قد دارت أمانيهم حول فداء الأم ، فإن فريد عـــين شوكة يجعل أمه هى التى تود أن تفتديه :-

(١) ديوان عبد الله البرد ونى : المجلد الأول صـــ١٣٨
(٢) الرسالة : السنه الثالثة العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧
(٣) ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني صـــ٢٤

ومناها لو أنها تفتدينى بالذي   يبتغى منى الفداء وترمى [١]

ويرى الشاعر إبراهيم عبد الفتاح نفســـه بجـانب أمـه طفــلا مـــهما كبر،ويهديها دموعا لا تجف:-

مهما علت سنى أرانى دائمـــا   طفلا بجنبك ضاحكا أو باكيــــا
كم كنت أسال فى حياتك ما الذى   أهدى إليك لكى يبين ولائيـــــــا
أى الهدايا ترتضيين أزفهـــــا   لك كى أكون على الجميل مجازيا
والآن لا أهدى إليك هديـــــة   إلا دموعا لا تجف جواريـــــا [٢]

ولا تتحمل نازك الملائكة هذا الألم الذى يعتصرها بفقد الأم ، فتلجأ إلى التعزى ،ولم تجد لألمها منفذا غير أن تشخص هذا الألم وتغنى له :-

أفسحوا الدرب له للقادم الصافى الشعور
للغلام المرهف السابح فى بحر الأريج
ذى الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج
إنه جاء إلينا عابرا خصب المروج
إنه أهدأ من ماء الغدير
فاحذروا أن تجرحوه بالضجيج
إنه ذاك الغلام الدائم الحزن الخجول
ساكن الأمسية الغرقى بأحزان خفية
والزوايا الغيهبيات السكون الشفقية
أبدا يجرحه النوح ويضنيه العويل

(١) الرسالة السنه١٥ سنة ١٩٤٧م المجلد الثانى العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧
(٢) ومضات فكر ونبضات قلب : إبراهيم عبدالفتاح صـــ١١٤٣

فليكن من صمتنا ظل ظليل
يتلقاه وأحضان خفية [١]

ويصور سيد قطب فى مرثيته لأمه موتها ، فيجعله موتا للأب ، فقد كان فى وجــود الأم غناء عنه (اليوم فقط مات أبى،واليوم فقط أصبحنا شتيتا منثورا، وإنى لأضم اليـــوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكما ، أضمهم بشدة لا ستوثق من الوحدة) [٢] *فقـــد أحـــس بالفقد ،أحس بفقد أبية وأمه ، إنه يضم أخواته إليه لعله يستشعر وجوده ، ويحس بمـــن حوله، بعد أن ماتت أمه وأحس بأنه شتيتا منثورا ٠*

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة على أمينه قطب بعد موت أمها(أصحيح أن ما معنى على رحيلك عنا هو تسعة أيام؟ إذن كيف تمر الشهور والسنون؟) [٣]

وينكر عبد المنعم خلاف فى رثاء أمه أن تذهب هذه المعانى العلوية إلى الـتراب وأن يفصل الله بين قلبه وقلب أمه وأبيه إلى الأبد (كلا لن تذهب هذه المعـــانى العلويـــة إلى التراب أيها المجانين الملحدون المفكرون للبعث لا بد أن تحيا هذه المعانى ونحيا لها لندركـها فى دار الشرح والتفسير لكل ألغاز الحياة كلا لن يضرب الله بين قلبى وقلبها وقلـــب أبى ويفصل بيننا إلى الأبد)[٤]

وتصور وفاء وجدى الموت فى كلمات مركزة ،تختزل فيها ساعات المـــرض والألم وطلوع الروح (أهات – حشرجة –غيبوبة) وتصور الموت على أنه زائر مكروه تســـلل

---

(١) ديوان نازك الملائكة المجلد الثانى :صـــ٣٠٩

(٢) الرسالة: العدد ٣٨٢ :

(٣) الرسالة: العدد ٣٨٢ :

(٤) الرسالة: العدد ٦٥٢ السنة ١٣ ٠

خلسة بالنهار ، وما كانت تدرى أن القدر يتسلل فى أى لحظة (لكن ما عن لنا أن يــأتى زائرك المكروه ، يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر) [٥]

ونلمح تفردا عند جميلة العلايلى فى قصيدة "عيد الأم " وهى تبدأها بقولها " العيــد عاد ولم تعودى " وكأنها تنتظر عودتها فى الحقيقة، *ومع ذلك فهى تفاجأ بعـــدم عودتهـــا وبغيابها فى العيد* :-

العيد عاد ولــم تعــودى ... يا من ملأت بها وجودى
الطير يشدو فى الخمائل ... أين ملهمتى نشيـــــدى
وأرى فؤادى لاهثـــــا ... مستنزفا دمع القصيـــد
وتغيب أحلامى التـــــى ... أسعدتها فى كل عيـــد [١]

- ***التأسى والعزاء :-***

عندما يبكى الشاعر أحدا بعيدا عنه ، غير قريب منه ، فهو يشـــارك غيره فى هذا المصاب ، يواسيه ويعزيه ، ويحاول أن يدعوه إلى الصـــبر والتأسى بالآخرين ويسوق له النماذج التى ترده إلـــى الصـــبر الجميـــل ، والحال غير ذلك فى قصيدة الرثاء ، فالمصاب مصاب الشـــاعر ، وهـــو يبكى فجيعته هو ، فهل هو فى حاجة إلى أن يوقف جمـــاح هـــذه النفـــس الحزينة البائسة ، وأن يردها إلى التصبر والصبر الجميـــل ، وهـــل هـــو

[٥] ديوان :الرؤية من فوق الجرح صـــ٣١

[١] ديوان نبضات شاعرة صـــ٣٠

بفاعل؟ وإذا فعل فهل هو بقادر على كبح جماح هذا اللب الطائر والنفـس المتزعزعة ؟.

الواقع أن كثيرا من الشعراء قد وجدوا فى التأسى والعـزاء مـلاذا ونجاة من التشتت والضياع وعصمة من أن تتناثر هذه النفس الملتاعة إلـى أشلاء من هول الفاجعة. ومن هؤلاء الشعراء الذين أصيبوا فى أولادهـم فكان ملاذهم التأسى والتصبر ، أبو ذؤيب الهذلى وغـيره مـن الشـعراء (وكان من عادة الشعراء السابقين أن يضربوا الأمثال فى المراثى بـالملوك والأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال، والأسود الخادرة فى الغياض، وحمر الوحش المتصرفة بين القفـار، والنسـور والعقبـان والحيات لبأسها وطول أعمارها. وذلك فى أشعارهم موجود لا يكاد يخلـو منه شعر. فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل [1] ومن الشعراء من رفض هذا التأسى وذاك العزاء ، عندما استحكم المصـاب وتمكنـت الفجيعة من النفس ، وابن الرومى من هؤلاء الشعراء الذين ***رفضـوا هـذا التأسى والتصبر عندما أصيب فى ولده:-***

وما سرنى أن بعته بثوابه	**ولو أنه التخليد فى جنة الخلد**
ولا بعته طوعا ولكن غصبته	**وليس على ظلم الحوادث من معدى [1]**

والملاحظ على قصيدة رثاء الأم أن كثيرا من الشـعراء. يحـاولون التأسى والتصبر والتماس الأسباب التىتدعو إلى ذلك ، فمنهم من ينجح فى

[1] العمدة : ابن رشيق جـ٢ صـ ١٥١ دار الجيل الطبعة الرابعة

[1] ديوان ابن الرومى جـ٢ صـ٦٢٥ . تحقيق حسين نصار القاهرة مطبعة دار الكتب سنة ١٩٧٣م

ذلك ، ويستطيع التماسك والصبر ، ومنهم من يزلزل الجزع أركانه ويــهدد كيانه.

فمن هؤلاء الشعراء الذين تصبروا بالسابقين ، وبان الموت كاس محتوم يشربه كــل بنى البشر، الشاعر أحمد شوقى عندما يقول :-

خلقنا للحياة وللممــــــــات	ومن هذين كل الحادثـــات
ومن يولد يعش ويمت كان لم	يمـــــر خياله بالكائنـــات
ومهد المرء فى أيدى الرواقى	كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكــــاء	فهل يخلو المعمر من قذاة
هى الدنيا قتال نحن فيــــــــه	مقاصد للحسام وللقنـــــاة
وكل الناس مدفوع إليــــــــه	كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمــــــى	بسهم من يد المقدور آت [٢]

وشوقى قد رثى جدته بهذه القصيـــدة، وبدأهـــا بـــالتصبر والتأســـى بالسابقين ، وبأن كأس المنية دائر على الجميع، ولكنه فى رثاء أمه لا يبـدأ القصيدة بهذا العنصر ، بل بدأها شاكيا باكيا من عوادى الذوى ، وشـــاكيا إلى الله هذا السهم الذى أصاب فؤاده بموت أمه ، ولكـــن عنصـــر الألـــم والشكوى والبكاء والتفجع الذى افتتح به قصيدته لم يدم طويلا ، ولم يقـــف عنده إلا فى سبعه أبيات سرعان ما انتقل بعدهـــا إلـــى عنصـــر التأســـى

[٢] ديوان شوقى حـــ٢ صـــ٣٩٨

والتصبر بان حكم المقادير نافذ ، والموت حتم ، وإلى حيث آبـــاء الفتـــى ***يذهب الفتى ، وهى سبيل قد دان بها العالمون منذ القدم :-***

ولم أر كالأحداث سهما إذا جرت ... ولا كالليالى راميا يبعد المرمى

ولم ار حكما كالمقادير نـــافذا ... ولا كلقاء الموت من بينها حتما

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى ... سبيل يدين العالمون بها قدما [١]

وعنصر التأسى والعزاء بان المـــوت قضـــاء الله ولا راد لقضائـــه ***موجود فى قصيدة عائشة التيمورية فى رثاء أمها:-***

وإرادة المولى تعالى شأنه ... حتمت لنا هذا فماذا نصنع [٢]

وتعزى الشاعرة وفاء وجدى نفسها بان أمها وان كانت قد مـــاتت ، وفقدت بموتها الرحمة والحب ، فان بين ضلوعها قلب هذه الأم برحمتـــه وحبة ووداعته فإن قلب الأم لا يموت :-

وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب
لكن عزائى أنى أملك قلبـــــك
فهنا بين ضلوعى يا أمى قلب الأم [١]

---

[١] ديوان شوقى حـــ٢ صـــ٥٣٣

[٢] حلية الطراز: عائشة التيمورية صـــ٣٠

[١] الرؤية من فوق الجرح ٠ وفاء وجدي صـــ٣٣ طبعة الهئية سنه١٩٩٨م

ومن الشعراء الذين فقدوا هذا العنصر وهو التأسى والصبر ، وسيطر عليهم الجزع والهلع ، محمد الهراوى حين يصور محاولة التماس الحـــزم والصبر فلا يجدهما وكيف يجدهما وقد ماتت من كـــانت مصـــدر الحــزم بالنسبة له ؟ ***وأين مصدر السلوى وقد غاب مثالها فى عينه وطيفها فـــى حلمه :-***

تلمست حزمى فى المصاب فعزنى لقد غاب عنى فى الثرى مصدر الحزم
وأنى لى السلوى وقد حال دونها مثالك فى عينى وطيفك فى حلمـــى [٢]

ويعلن الشاعر فريد عين شوكة أنه لا صبر ولا عزاء أمام فقـــد الأم ويرفض لوم اللائمين له فى بكاء أمه ، وهو يعلن هذا من بداية قصيدته:-

لا تلمني على بكائي وغمـــــي أي صبر يعين في فقد أمــــــــــي
أي كنز فقدته في نواهــــــا أي خسر أصابني أي غـــــــــم[٣]

وفى نهاية القصيدة وبعد تعداد خصالها وتصوير مدى الفجيعة فيــها يرفض أن يهجر دمعه ، ويـــأبى أن يــترك حزنـــه ويتمنـــى ألا يعــرف الصبر :-

يا لها من فجيعة رزأتهـــا فى سجايا عظيمة أى عظـــــــم
أيها الحزن لا عدمتك حتـــى تسحق النار فى أتونك عظمـــــى
أيها الدمع لاهجرتك حتـــى ينزف القلب فى انسكابك دمـــــى
أيها الصبر لا عرفتك حتى يستوى فى جوار أمى جسمى [١]

---

[٢] الرسالة: السنه الثالثة سنه١٩٣٥ م العدد ١٢٨ص ٢٠٢٧

[٣] الرسالة : السنه ١٥ سنة١٩٤٧م العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

ومن الشعراء الذين رفضوا العزاء أيضا ووجـــدوه جمـــرا يكـــوى فؤادهم المكلوم، فلا الرثاء يخفف عنه، ولا كلمات العزاء تواسيه ، بـــل إن كلمات المواساة لتسيل دمعه، ***الشاعر إبراهيم عبدالفتاح حين يقول :-***

أغلى الكنوز دفنتها فى حفـــرة	ورجعت مكلوم الجوائح داميا
أجد العزاء من المعزى لاذعـــا	كالجمر يسقط فوق قلبى كاويا
إن يحبس الدمع الحياء أسالـــــه	من جاء بالقول الجميل مواسيا
راحت وقد وخط المشيب مفارقى	فرأيتنى كالطفل يصرخ باكيا
قالوا تخفف بالرثاء تصوغـــــه	كم كان شعرك بالجراح مداويا
فأجبت ألجمني الأسى لم يستطع	قلبي المحطم أن يصوغ مرائيا [٢]

وهكذا وجدنا تنوع الشعراء أمام الحدث ما بين جازع هلـــع رافـــض للصبر والتأسي، وما بين متماسك يحاول التأسي والتصبر.

الدعاء للأم :-

من قديم الزمان وقصيدة الرثاء تحمل معانى الدعاء بألفـــاظ شـــتى وبصـــور متعددة وأكثر الدعاء بالسقيا لهذا القبر، وبالرحمة للميت، وإذا كان الدعاء بالسقيا قد كثر فى الجاهلية، فمن الغريب أن يبقى الدعاء بالسقيا للقبر إلى يومنا هـــذا فى العصر الحديث :-

---

[١] الرسالة : السنه ١٥ سنه ١٩٤٧م عدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

[٢] ومضات فكر ونبضات قلب :إبراهيم عبد الفتاح صـــ١١٤ دار الصفا للطباعة طبعة أولى سنه١٩٩٠م

وقد جمعت عائشة التيمورية فى رثاء أمها بين الدعاء بالرحمة وبين السقيا للقبر :-

يارب فاجعل جنة المأوى لهـــــــا دارا بطيب نعيمها تتمتـــــع
واسكب على حصبائها سحب الرضا فضلا وإن تك قد سقتها الأدمع [٢]

وقد يتوجه الشاعر إلى ربه مستودعا إياه تلك الوديعة الغالية ،طالبا مـــن الله أن يسكنها الجنة :-

ربــــــاه ثـــــم وديعـــــــــة فى ظل برزخك العجيب
حطهـــــا برحمتـــــــــك القريـــ ـبة أنت علام الغيوب [٣]

وربما أوجز الشاعر الدعــاء ، وأعلــن انــه ســيدعو لهــا ســائلا الله أن يقبل هذا الدعاء :-

والآن لا أهدى إليك هديــــــــة إلا دموعا لا تجف جواريــــا
ودعاء قلب قد عرفت وفـــــاءه والله أسأل أن يجيب دعائيا [٤]

ومع ذلك فقد خلت قصائد كثيرة من الدعاء ، وكأن الشاعر يتأبى علـــى الفقــد والغياب ويرفض الاستسلام للواقع ويتحدث كما لو كانت أمه موجـــودة ، أو غائبــة وستعود يوما ما ، ومن هنا فقد خلت قصيدة أحمد شوقي ومطران وعبد الله الـــبرد وني وغيرهم من هذا الدعاء.

---

[٢] حليه الطراز صــ٣٠
[٣] ديوان حسين عبدا لله القرشى جـــ٢صـــ٢٤٣
[٤] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

وقفة الشعراء على القبر :-

يشغل المكان الأخر الذى تذهب إليه الأم بعد موتها، أو المثوى الأخير الذى يثـوى فيه الجسد، يشغل حيزا كبيرا فى قصيدة الرثاء. فمن الشعراء من يقف بهـــذا القـــبر أو يخاطب أمه من خلاله، ومن هؤلاء الشعراء عائشة التيمورية التى راحت تخاطب القـــبر الذى يضم هذا الرفات الغالي وتلك الدرة اليتيمة. وهى تبدأ قصيدتها بهذا النداء لهـــذا القبر بان يهنأ بمن نزلت فيه ، *وثوت بين أركانه:-*

يا قبر فاهنأ بالتي أحرزتهـــا   هي درة في الدرج لاحت تسطع [١]

ومن الشعراء الذين عرضوا للفكرة نفسها، وهى أنهم أودعـــوا كـــنزا غاليـــا في الثرى، الشاعر إبراهيم عبد الفتاح ، فقد وقف مرة وهو يرثى أمه على قبرهـــا ، وراح يحدث روحها ويناجيها ، ويستلهم الرشد الذي عودته إياه ويبل فؤاده الصـــادي٠ومع إحساسه بالراحة، فإنه راح يتساءل هل يحس قلبها بالراحة عندما يجيئها داعيـــا ؟ هـــل يفيض قلبها بالحنان كعهده دائما ؟ أم ترى تحول إلى القسوة وحاشاه ذلك. ثم يجيـــب هو، حاشا لبرها وحنانها أن ينقص ، وحاشا لقلبها أن يرى متجافيا ، *فهو يحـــس بنبـــض فؤادها فى قبرها عندما يأتيها شاكيا :-*

كم جئت مثواك الأخير محدثا	روحا أحب حديثها ومناجيـــا
استلهم الرشد الذى عودتنـــى	وأبل فى صدرى فؤادا صاديا
أيحس قلبك بالحنان كعهدنـــا	بحنانه أم صار قلبا قاسيـــا
حاشا لبرك أن يقل على المدى	حاشا لقلبك أن يرى متجافيـــا
إنى أكاد أحس نبض فؤادهـــا	فى قبرها أن جئت أشكو حاليا [٢]

---

[١] حليه الطراز: صــ٣٠

ويقف الشاعر مرة أخرى على القبر فى قصيدة أخـــرى يســـميها بهـــذا الاســـم (وقفة على ضريح والدتى الحبيبة) يعلن من بداية القصيدة أنه يعى تماما أنه ليس بالقـــبر غير رمام، وأن روحها الكريمة قد ارتقت إلى السماوات العلى فى عليين، ولكنه يؤمـــن كذلك بأنه كلما زار هذا القبر كلما أتت روح أمه كأنه معها على موعد ،لا يمـــترى ولا يشك فى ذلك يبصرها رغم الفناء أمامه ، يلقى عليها السلام وترد عليـــه الســـلام ،إذا امتلأت نفس امرئ بحبيبه، رآها عيانا عند كل مقام ، إنه يجيئ إليها فى لهفة لحنانها، كأنـــه رضيع ما بلغ الفطام بعد: –

أعاودها فى قبرها لأزورهـــا وليس بهذا القبر غير رمـــام
ولكنها تأتى إلى القبر كلمـــا وقفت به الـــروح ذات دوام
لقد طارت روح الكريمة وارتقت إلى منزل فوق النهى متســـام
أخاطبها لا أمترى فى جوابهـــا وأبصرها رغم الفناء أمامـــى
وألقى على أمى السلام تحيـــة فأسمع رغم الصمت رد سلامي
وإنى أراها ملء عينى دائمـــا وأبصرها فى يقظتى ومنامـــى
وإذا امتلأت نفس امرئ بحبيبه رآها عيانا عند كل مقـــام
رآها بعينى قلبه رؤية المنـــى فيرتاح قلب فى الفجيعة دام [1]

<u>ويصور كيف أنه أودع كنزا غاليا فى الثرى :–</u>

شيعت فيك حنان أمى للثرى ووضعت فى الغبراء كنزا غاليا
أغلى الكنوز دفنتها فى حفرة ورجعت مكلوم الجوانح داميا [2]

---

(٢) ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٦

(١) ومضات فكر صـــ١٧٠

(٢) ومضات فكر صـــ١١٤

ومن الشعراء من نظر إلى القبر نظرة جامدة محايدة ،فـــهو صـــامت،وهـــو قبر،وهو قفر:-

حيث أدعوها فلا يسمعنى غير صمت القبر والقفر اليباب [٣]

وهو جدث رهيب مظلم :-

فى عمق أعماقى بــــرو حى فى الحنايا فى الوجيـــب

مثواك يا أمــــــــاه لا فى ظلمة الجدث الرهيـــب [٤]

◉ **أثر فقد الأم فى الأبناء:-**

يشكل فقد الأم عند الأبناء جرحا داميا ينزف ، ودمعا يهطل ، وقـــد عبر الشعراء والناثرون عن أثر هذا الفقد بصور شتى ، واختلفوا فى هـــذا التعبير باختلاف ظروف الفقد ذاتها. لقد ماتت أم الشاعر أحمد شوقى وهو فى منفاه فى الأندلس ، وكان يعلل نفسه بالعودة إلى مصـــر ولقـــاء آلـــه والسعادة برؤية أمه ، ولكن البرق قطع هذا الأمل حينما نعى عليه أمـــه ، فحزن أشد الحزن ، ***ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المرثية التى بدأهـــا شوقى بالحديث عن الخبر الذى وصله فأدمى قلبه:-***

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما أصاب سويداء وما أصمـــــــى

من الهاتكات القلب أول وهلـــــة وما داخلت لحما ولا لامست عظما

توارد والناعى فأوجست رنـــــــة كلاما على سمعى وفى كبدى كلما

---

(٣) ديوان عبدا لله البرودونى المجلد الأول صـ١٣٨

(٤) ديوان حسن عبد الله القرشى المجلد الثانى صـ٢٤٣

فما هتفا حتى نزا الجنب وانزوى	فيا ويح جنبى كم يسيل وكم يدمى
أبان ولم ينبس وأدى ولم يفه	وأدمى وما داوى وأوهى وما رما[1]
إذا طويت بالشهب والدهم شقة	طوى الشهب أو جاب الغدا فية الدهما

فهو يشكو إلى الله فى غربته ذاك السهم الذى أصاب فؤاده ، وجرح كبده وأدمى جنبه ، وقد وصل سريعا وطوى البلاد حتى وصل إليه.

ويوضح الشاعر خليل مطران وهو يرثى أمه ، تلك النعمة العظيمة التى كان يرفل فيها هو وجميع المحيطين به ، ولكنها لم تدم ، ***وهذا العز الذى تحول إلى ذل بموت تلك الأم:-***

يــا نعمــة عظمــت فلــم تـــدم	وكـــذا تكـــون عظـــائم النعــــــم
عشـــنا زمانـــا وهـــــى قســــمتنا	وغناؤنـــا عـــن ســـــائر القســــــم
حـــــتى عدمناهـــــــا فعزتنــــــا	كـــــالذل والإثـــــراء كــــــالعدم
واحـــر قلبــــا يــــا أميمــــة أن	تمضى ويمضــــى الســــعد مـــن أمـــم
ماذا أنا؟ ولمن مكافحـــــــــــتى؟	وعلام بذلى قوتى ودمـــــــــــــــى

هكذا يعطينا الشاعر فى خمسة أبيات كثيرا من المعـــــانى المركـــزة الهادفة، فأمه كانت نعمة عظيمة ، ولكنها لم تدم وهذا شان النعـــــم ، لقـــد عاشوا زمانا وأمهم هى كل قسمهم من الحياة ، وكفى بها قسما ونصيبـــا ، كفاهم عن سائر الأشياء. وفجأة فقدوا هذا النصيب ، فإذا عزهـــم يتحـــول إلى ذل ، والثراء كالعدم. ثم يشعرنا بالألم الذى اعتراه بعد ذهـــاب أمـــه،

---

(١) ديوان شوقى : شرح د أحمد الحوفى حـ٢ صـ٥٣٢ .

وذهاب السعد معها، ويدير حوارا مع نفسه ويسمعنا إياه لنفهم منه أنه لـــم يعد موجودا بعد ضياع أمه، ولم يعد يدرى عن نفسه شيئا، من أنا؟ ولمـــن مكافحتى؟ لقد كان يكافح لتسعد تلك الأم، لتسعد بوجـــوده، فلمـــن يكـــافح؟ ولمن يبذل قوته ودمه ؟•

والشاعر العقاد، هذا الطود الشامخ، والجبل الأشم الصلب، يتحـــدث عن فراق الأم بحسرة ولوعة، فهو لم يحسب حســـابه علـــى أن هـــذه الأم مفارقة يوما ما، لقد حسب أن الأمومة أخت الدوام والبقاء والعطـــاء، لقـد راض الخطوب الجسام ومع ذلك لم يرض نفسه على هذا الأمر. لقد عـاش أبيا لا يفجعه صوت ، ولا يسكته أحد ، وها هو ذا يفجعه صوت النعـــى ، لقد خلا الكون من تلك الأم فأظلم وقد كانت نورا له ولدنيـــاه ، وتحولـــت البلاد إلى قفار وصحارى. ***لقد كان يخاف الخطوب قبل موتها من أجلـــها هى ، ولكنه الآن لا يخاف ، فما الخوف بعد هذه الأم؟ ولم الخوف؟ ومـــن أجل من؟ وعلى من ؟:-***

فراقـــك يـــا أم لم أحتســـب ... لـــه بغتـــــه أو نذيـــرا ترامـــى
ومـــا روضتـــى لـــــه الحادثـــا ... ت وإن رضت منها الخطوب الجســـاما
كـــأنى ادكرتـــك لى مولـــدا ... فلـــم أدكـــر لـــك يومـــا حمامـــا
حسبت الأمومـــة أخـــت الـــدوام ... وخـــادعت ظـــنى عليـــها دوامـــا
وأفحمـــنى فيـــك خطـــب النعـــى ... وفى غـــيره مـــا شـــكوت الفحامـــا
لئـــن عظـــم المـــوت يـــا أمنـــا ... لقـــد هـــان يـــوم ســـكنت الرغامـــا
ومـــا أرخـــص النـــور لمـــا غـــلا ... لقـــد هـــان يـــوم ســـكنت الرغامـــا
خـــلا الكـــون منـــك فمـــاذا أرى ... مـــن الكـــون بعـــدك إلا ظلامـــا

فيـــا هولهـــا مـــن قفـــار تركـــت ... ويا شدت مـــا قـــد عـــرت الرجامـــا
تلاقـــــى ذوى ببطـــــن الـــــثرى ... فـــانعم بحيـــث أقـــاموا مقامـــــا
لأجلك كنت أخاف الخطـــــــوب ... فما الخوف بعدك إلا سلامــــــــا[١]

والعقاد يذكر أبياتا أخرى ، ويجيب فيها على ذاك المتعجب من بكاء العقاد على أمه ، وهو شيخ كبير ، ***فرد عليه بهذين البيتين:-***

تعجب قوم لشيخ بكـــــــــــى ... أكان المشيب لدمعى فطامــــــــــا؟

ونحن مع "البردونى " [٢] الشاعر اليمنى المكفوف البصر الذى فقـــد أمه ، وقد كانت عينه التى يرى بها ، ولذلك فإحساسه بالفقد أعظم ، فـــهو فقد حسى ومعنوى ومن هنا تبدأ القصيدة مباشرة بالإحساس "بالترك" فقـــد تركته، وتركته ها هنا، فى مكانه، كيف يتقـــدم أو يتـــأخر، تركتـــه أمـــه ومضت. يا طول حزنه واكتئابه، لقد مضت بلا عودة، ***لقد تركته للشـــقاء وحده، واستراحت وحدها فى التراب:-***

تركتـــنى هـــا هنـــا بـــين العـــذاب ... ومضت يا طـــول حـــزنى واكتئـــابى
حيـــث لا جـــــور ولابغـــــى ولا ... ذرة تنـــــى وتنـــــبى بـــــالخراب
حيـــث لا ســـــيف ولا قنبلـــــة ... حيـــث لا حـــرب ولا لمـــع حـــراب
حيـــث لا قيـــد ولا ســـــوط ولا ... ظـــالم يطغـــى ومظلـــــوم يحـــابى

---

[١] ديوان العقاد حـــ٢ صـــ ٩١٥ حـــ١ بيروت ، والأم فى الأدب: فتحى الإبيارى صـــ ٢٨

[٢] شاعر يمنى من "بردون" التابعة لذمار ، من مواليد سنة ١٩٢٥م ، أفقده الجدرى نعمة البصر فى السابعة من عمره ، تلقى دراسته فى ذمار وصنعاء ، قام بتدريس الأدب فى مدرسة دار العلوم بصنعاء ، ثم عمل مديرا لبرامج الإذاعة ، من أعماله الأدبية : من أرض بلقيس : ديوان شعر فى طريق الفجر : ديوان شعر ، مدينة الغد:ديوان شعر ، لعينى أم بلقيس : ديوان شعر ، رحلة فى الشعر اليمنى : دراسة الشعر المعاصر فى اليمن

خلفتني أذكر الصفو كما ... يذكر الشيخ خيالات الشباب
ونأت عني وشوقي حولها ... ينشد الماضي وبي-أواه-ما بي
ودعاها حاصد العمر إلى ... حيث أدعوها فتعيا عن جوابي
حيث أدعوها فلا يسمعني ... غير صمت القبر والفقر اليباب
موتها كان مصابي كله ... وحياتي بعدها فوق مصابي
أين مني ظلها الحاني وقد ... ذهبت عني إلى غير إياب
سحبت أيامها الجرحي على ... لفحة البيد وأشواك الهضاب
ومضت في طريق العمر فمن ... مسلك رحب إلى دنيا صعاب
وانتهت حيث انتهى الشوط بها ... فاطمأنت تحت أستار الغياب
آه يا أمي وأشواك الأسى ... تلهب الأوجاع في قلبي المذاب
فيك ودعت شبابي والصبا ... وانطوت خلفي حلاوات التصابي
كيف أنساك وذكراك على ... سفر أيامي كتاب في كتاب
إن ذكراك ورائي وعلى ... وجهتي حيث مجيئي وذهابي

ويتحدث البردوني عن حياته وكيف كانت أمه تطعمه وتسقيه وتدفئه، ***ويرسم صورة رائعة لذلك عندما يصور يده في يدها أو في طعامه أو شرابه:-***

كم تذكرت يديك وهما ... في يدي أو في طعامي وشرابي
كان يضنيك نحولي وإذا ... مسني البرد فزنداك ثيابي
وإذا أبكاني الجوع ولم ... تملكي شيئا سوى الوعد الكذاب
هدهدت كفاك رأسي مثلما ... هدهد الفجر رياحين الروابي

كم هدتنى يدك السمرا إلى حقلنا فى (الغول) فى قاع الرحاب[1]

لقد أضننته الذكرى ، تلك الذكرى التى تحاصره مـن أمامـه ومـن ورائه ، يتذكر فى طريقه ، وفى طعامه وشرابه ونومه ، لقد كانت أمه هى عينه التى يرى بها الطريق ويشرب ويأكل وينعم بالراحة والهدوء.

ومن هنا فهو يظهر التحسر والتفجع من خلال تلك الذكريات ، مـن خلال سجايا تلك الأم التى حرم منها.

ويصور "حسن القرشى" موت الأم ، وقد أظلمت الدنيا، وحولتهم إلـى أيتام على مائدة الخطوب، لقد ثقلت المصيبة وحطت بكلكلها وناء بحملـها صبر اللبيب. هاهو الشاعر يهتف ولا مجيب، مع أنها كانت فـى حياتـها فصيحة بليغة. ويفجع الشاعر بهذا الصمت الغريب من تلك الأم التـى لـم تعـد تصغـى لـه وتـرد عليـه، ***لا تسـمع نـداء هـذا المفجـوع الملتاع يبكى ويئن:-***

هــا نحــن يــا أمــاه أيـــ	تــام بمـــائدة الخطـــوب
حطـــت بكلكلــــها ونـــاء	بحملــها صـــبر اللبيـــب
وهتفــت فــــانحبس الجــــوا	ب وكنــت كاللســن الخطيـــب
تتدفقـــين فصاحــــة وبلاغــــة	وتنافســـين صـــدى الأديـــب
أمـــاه هـــل تصغـــين؟مـــا	عودتـــى صمـــت الغريـــب
هـــل تســـمعين نجـــاء مفـــ	جـــوع بمحبســـه الجديـــب؟

[1] الغول : كـ "حول" : ما المهبط من الأرض ، وهو قاع الرحاب من حقول والد الشاعر فى قريته ، ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول دار العودة بيروت ، طبعة أولى صـ ١٣٨

يبكى يئـــن وما تعـــــــــــــــو ... ود فى الأسى سيـــــــل النجيب[١]

وهذا هو فريد عين شوكة يبدأ قصيدته رافضا على هؤلاء اللوام لومهم وعتابهم على بكاء الشاعر لأمه:-

لا تلمنى على بكائى وغمـــــــــــى ... أى صبر يعين فى فقد أمـــــــــــــى
أى كنز فقدته فى نواهـــــــــــــا ... أى خســـــر أصابـــــــنى أى غم

ومع هذا البكاء وهذه الخسارة، وهذا الإحساس بالفقد، فانه ينادى على أخوته، ***والفجيعة مشتركة بينهم أن يتآخوا ويتماسكوا كالبنيان يشد بعضه بعضا :-***

هيه يا أخوتى – ونحن جميعــــــــــا ... فى أسى لافح اللظــــــــى مدلهـــم
كلنا فى فجيعة الأم يطـــــــــوى ... جانبيه على سهام وكلـــــــــم[٢]

ثم بعد ذلك يتمرد الشاعر على الصبر والتأسى ، ***وينطلق مرة أخرى لائذا بدمعه وحزنه مستهولا للفجيعة بعد تعداد مآثرها:-***

يالها من فجيعــــــــــة رزأتمـــــــا ... فى سجايا عظيمة أىّ عُظـــــــــــم
أيها الحزن! لا عدمتك حـــــــــق ... تسحق النار فى أتونك عظمــــــــى
أيها الدمع لا هجرتك حـــــــــق ... يترف القلب فى انسكابك دمــــــــى
أيها الصبر لا عرفتك حـــــــــق ... يستوى فى جوار أمى جسمـــــــــى
لا أطيق الحياة بعد نواهـــــــــا ... آه ، يا ليت يومها كان يومـــى[٣]

---

[١] ديوان حسن عبد الله القرشي: المجلد الثانى دار العودة بيروت ص ٢٤٣

[٢] مجلة الرسالة : صـــ ١١٨٧ السنة ١٥

[٣] الرسالة : صـــ ١١٨٧ السنة ١٥

ويبدأ الشاعر محمد الهراوى قصيدته فى رثاء أمه بالحزن والبكاء ،

وينهى قصيدته كذلك بالحزن والبكاء:-

تكشفت الأحداث بعدك يـــا أمـــى فيا طول ما أبقى من الحـــزن والهـــم

الله يـــا أمـــاه مـــا أنـــا بــــــالذى تعود أن يقوى على الحادث الجـــــهم

فقدت التى كانت إذا شط بى النوى تسائل عنى فى الدجى سارى النجم

وينهى قصيدته بالاستسلام للحزن،رغم نصيحة أمه لــــه بعـدم الحـــزن والبكاء:-

سأخضع يا أمى لقلبى ومدمعــــــــــى على رغم ما أسديت من نصحك الجم

وأبكيك بالقلب الذى تعرفينـــــــــه وللدمع شأن غير ذلك فى الحكـــــم

ونحن مع الشاعر إبراهيم عبد الفتاح فى مواجهـــة ذلـــك اليـــوم الحزين الذى توفيت فيه والدته، فأدمى قلبه ، لقد دفن أمه ورجـــع مكلـــوم الجوانح داميا، وهؤلاء الناس يعزونه فإذا هذا العزاء يلذع كالجمر فيكـــوى قلبه، ويأخذه الحياء فيحبس دمعه ، ثم تأتى كلمات المواساة فيفيض الدمـــع، وهاهو فى شيخوخته يرتد طفلا صغيرا يجهش بالبكاء، ويطلب من ركـــب الأحبة أن يتمهل فهو لا يطيق الفراق،فقد تحين وفاتـــــه. وهكـــذا تدفقـــت الكلمات على لسان الشاعر بلا تَوقف، مشعرة بالأسى والحزن، مصورة ما ألم بالشاعر من مصاب فى يوم الخميس، الذى لم يرحم فؤاده، ودفن أغلـــى الكنوز فى القبر ورجع وحيدا حزينا. وقد سلكت الشاعرة نازك الملائكـــــة مسلكا آخر، لم يسلكه شاعر قبلها، فقد غلبها الحزن على نفسها ولم تجـــــد لألمها من منفذ أو سبيل سوى أن تتعايش معه. تقول نازك مقدمة لقصائدها

قد يكون الشعر بالنسبة للإنسان السعيد ترفا ذهنيا محضا ، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة. وقـــد كـــانت القصـــائد الثـــلاث التاليـــة محاولـــة للتعزى، ***لجأت إليها على إثر وفاة أمى فى ظروف محزنة،عانيت منها معانـــاة خاصة، ولـــم أجـــد لألمـــى منفـــذا أخـــر غـــير أن أحبـــه وأغنـــى لـــه***[1]. *فهى تصور الحزن غلاما مغرقا فى الخجل والأسى يحيى الدموع الخـــرس* فى بعض العيون إنه ذاك الغلام الدائم الحزن الخجول:–

ساكن الأمسية الغرقى بأحزان خفيـــــــــــــــة
والزوايا الغيهبيّات السكون الشفقيـــــــــــــة
أبدا يجرحه النوح ويضنيه العويـــــــــــــــل
فليكن من صمتنا ظل ظليـــــــــــــــــــل
يتلقاه وأحضـــــــــــــان خفيـــــــــــــــة
وهو يحيى فى الدموع الخرس فى بعض العيـــــــــون
وله كوخ خفى شيد فى عمق سحيـــــــــــــــق
ضائع يعرفه الباكون فى صمت عميـــــــــــق[2]

وراحت الشاعرة تهدى هذا الغلام الحزين ، أدمعها الفدية ، ***وأساها العميق ، وشذى حزن عميق:–***

---

[1] ديوان نازك الملائكة : المجلد الثانى . دار العودة بيروت سنه ١٩٨٦ صـــــ٣٠٩

(٣) المرجع السابق صـــ ٣٠٩

وسنهديه انفجار الأدمـــع العذبـــة سلـــــــوى

وسنحبوه أســـى أقـــوى وأقـــــــــوى

وســـنغطيه عيـــــــونا وجبـــــــــاها

إنه أجمل من أفراحنا مـــن كـــــل حـــــب

إنه زنبقة ألقى بها المـــــــوت عليـــــنا

لم تزل دافئة ترعش فى شوق يدينـــــــــــا

وسنعطيها مكانا عطرا فى كـــل قلـــــــــب

وشذى حزن عميق القعـــــــر خصـــــب

إنه منا وقـــد عـــــاد إلينـــــــا[1]

وتسلك الشاعرة وفاء وجدى[2] مسلكا آخر ، ***عندما ترسم صورة لشبح الموت وهو يلم بوالدتها وتصور تلك اللحظات الأخيرة بقولها:-***

(١)المرجع السابق صـ ٣٠٩

(٢)ديوان:الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدى صـ٣١ طبعة الهيئة سنه ١٩٨٨ م

دقت ساعات الليل ثقيـــــــتلات الخطوات
تتعثر بين دقائقهـــــا وثوانيهـــــا
آهات .. حشـــرجة .. غيبوبـــــة
لكن ما عنّ لنا أن يأتي زائرك المكـــــروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهـــــــر
لو أدرى أن الظهــــر يخــــــــون
لسددت بقلبى كل ثقـــوب النـــــور
لتشبثت بساعات الليــــــل الظلمـــــاء
وعشقت الليـــــــل الملعــــــون
لو أدرى أن عناقك لى فى تلك الليـــــــلة
كـــــــان عنـــــاق وداع
لصهرت ضلوعى بين يديك وعشت بصـــــدرك
ومضيت إلى حيث تكونين أكـــــون....
لــــــــــو أدرى [1]

وجميلة العلايلى تنشد قصيدة فى عيد الأم فتبدأ قصيدتها بكلمة تحمــل كل معانى الأسى والحزن والضياع "العيد عاد ولم تعودى" كأنها لا تصــدق أنها ذهبت بلا عودة، كأنها مازالت تنتظر أمها علّها تعود، وهى فـــى هــذا الانتظـــار تـــنزف دمعـــها قصيـــدا، ***وتدعـــو ربـــها كـــل يـــوم أن تعود تلك الأم:-***

[1] المرجع السابق : الصفحة نفسها .

العيد عاد ولم تعـــــــــــــــودى	يا من ملأت بهـــا وجـــــــــودى
الطير يشدو فى الخـــــــــــمائل	أين ملـــهمتى نشـــــــــــــيدى
وأرى فـــــــــــــؤادى لا هيثـــا	مسترفا دمــــــع القصيـــــــــد
وتغيب أحـــــــــــلامى التى	أسعدها فى كـــــل عيــــــــد[1]

والشاعر عمر بهاء الدين الأميرى، يخصص لأمــه ديوانـــا خاصـــا باسمها يسميه ديوان "أمى" ، معبرا عن شعوره الفياض الحنون تجاههـــا حية وميتة [2] وهو يصور فقده لأمه وعمق جراحه عندما يقول:-

أماه فقدك عندى أفدح النــــــوب	جراحه نكأت جرحى بفقـــد أبى
يا للسنين لقد مـــــــرت صحائفها	تترى كأن بها رتل من السحب
خمس وعشرون من عمرى مــــــرزأة	مليئة بضروب الهم والوصــــب
صبر وشكر وشكوى وارتقاب غد	كل يوم غد فى حلم مرتقب[3]

ويصور الشاعر محمد أحمد العزب[4] موت أمه فى نغمـــة حزينـــة باكية لا ينقلها إلينا مباشرة أو فى جمل تقريرية جافة ، فهو لا يقـــل إننـــى أبكى أو أننى حزين ، ولكنه يصور تعجبه واندهاشه من سير الحياة ســـيرا طبيعيا مع أن أمه قد ماتت ، فلا الحزن فى عيـــون النـــاس ولا الحمـــائم توقفت عن الطيران ، ***وهو يصرخ فى الكون كله "أمـــى مـــاتت" "متنـــا"***

---

[1] ديوان: نبضات شاعرة: جميلة العلايلى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١ م

[2] الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات قلب: د / محمود حسن ناجى ص ٢٣٤

[3] ديوان أمى صـــ ١٧١ .

[4] الأعمال الشعرية الكاملة : د/ محمد أحمد العزب صـــ ٦١٣ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م

ويتمتم الناس في جمل جافة محفوظة تلقى دون إحساس "يرحمـــــها الله" ويرى الشاعر أنه لا جدوى من البقاء بعدها:-

"أمي ماتت"

وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا !!

يا قسوة عين لا تبكي أحزان الناس !!

"أمي ماتت"

لكن حمائم جارتنا تمضي عني ..

مثني .. مثني !!

وأنا أتحسس كلمات ذابلة الوجه بلا معنى!!

ماتت .. متنا !!

ويتمتم شيخ ثلجي الإحساس!!

" أجل ... يرحمها الله !!

يا شيخ تألم لي ...

صّعد حتى من شفتيك الآه !!

ما أقسى قلبك ... ما أقساه !!!

ويسير البعض على أعناق الناس إلى الوادي الآخر !!!

وأنا أتساءل :

ما جدوى أن أحيا - أو يحيا الأخر ؟

وقد رثى الشيخ سيد قطب رحمه الله أمه نثرا تحت عنـــوان "أمـــاه" فيصور حالته ، وحالة إخوته بعد فقد الأم وكيف تشتت الأسرة ، وأحـــس

بالوحدة ، وأحس بفقد أبيه ، وهو يصور ذلك ***فيقول:-*** " من نحن اليوم يـا أماه؟؟ – بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا؟ ما عنواننا الذى نحملـه فى الحياة ونعرف به؟ إننا لم نعد بعد أسرة "، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا ***يقولون*** :– "هذه أسرة فلان ، بل أصبحوا ***يقولون*** : –"هذا فلان وهـذا أخوه، وهاتان أختاه!، اليوم فقط مات أبى، واليـوم فقـط أصبحنـا شـيئا منثوراً، وإنى لأضم اليوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكمـا، أضمـهم بشـدة لأستوثق من الوحدة، وأشعرهم بالرعاية. ولكن هيهات هيهات، فأنا وهـم بعدك أيتام يا أماه [1] وهو يصور فى بساطة شديدة مع عمق بعيد ودلالـة قوية إحساسه بالفقد والتشتت والضياع ، فالنـاس كـانوا يقولـون أسـرة فلان، واليوم ***يقولون*** :–" هذا فلان، وهذا أخوه، صـورة بسـيطة لكنـها عميقة وتستمد عمقها من بساطتها". ***وكذلك إحساسـه بالتشـتت فـيروح يلتصق بأخيه ، يضمه إليه علّه*** يشعر بالوحدة والتوحد ، ولكن آنـى لـه ذلك بعد فقد الأم، هيهات هيهات لقد أصبح يتيماً بعد فقد أمه، غريباً بعـد موتها.

وقد رثت تلك الأم،أخت الشيخ سيد قطب أيضا، الآنسة أمينة قطـب، فى مجلة الرسالة تحت عنوان "***بعد الفاجعة***" وهى تتشكك منذ البداية فـى قدرتها على الكتابة بعد فقد أمها فقد كانت تلك الأم (القوّة الغريبـة التـى تشع الحياة فى عقولنا ونفوسنا، فنفكر ونحس ونقوى على العمل) وبعد فقـد تلك الأم لم تعد قادرة على الكتابة لأنـها بفقـد الأم فقـدت كـل شـىء

[1] الرسالة: العدد ٣٨٢

(والآن ماذا فقدنا بفقدك يا أماه؟ لقد فقدنا كل شيء فكفـــت عقولنـــا عـــن التفكير وأظلمت نفوسنا وخمدت فينا جذوة الحياة)[١]

وتقارن أمينة قطب بين حالتها قبل موت الأم وبعده، فإذا حالـــها قـــد تبدل ونفسها قد تغيرت، وذلك حين تقول (أمى٠٠٠٠ أصحيح أن ما مضى على رحيلك عنا هو تسعة أيام ؟ إذن كيف تمر الشهور والسنون؟ تســـعة أيام فقط تتبدل فيها نفسى هذا التبديل ؟

أين نفسى الأولى المرحة المشرقة المتفتحة للحياة الخالقة للآمال؟ أين هى من هذه النفس الميتة الغائبـــة عـــن العـــالم، ومـــا فيـــه مـــن أمـــال وأحلام، ***البعيدة عن كل ما فى الكون مـــن مبـــاهج وجمـــال؟ إن هـــاتين النفسين لتفصل أحدهما عن الآخرى سنون وأجيال***)[٢]

ويكتب الأستاذ عبد المنعم خلاف راثيا أمه، وقد أحس يوم موتـــها أن حياته قد انشطرت، وأنه أصبح كغصن غاب عنه جذعـــه الـــذى يربطـــه بالأرض (وهاهو ذا وجهها يطالعنى بعد موتها مغمض العينين ينظر لـــى من فوق سرير الموت ومن أعماق ظلمات القـــبر، فأشـــعر لمفارقتـــها أن حياتى قد انشطرت، أو أنى كغصن غـــاب عنـــه جذعـــه الـــذى يربطـــه بالأرض[١])، وتذكره كل معانى الحياة اليومية بتلك الأم فتثير هذه المعانى

---

[١] الرسالة: العدد ٣٨٢

[٢] الرسالة: العدد ٣٨٢

[١] الرسالة: العدد ٦٥٢

فـــى نفســـه شـــجنا وحزنـــا يعينـــه فـــى حياتـــه الروحيـــة (وحين أمرّ بسريرها خاليا من جسدها الذى كان ملء نفسى وفكرى، وحين أرى ثيابها يعمرها شبحها، وأتذكرها تمر بالمنزل حجرة حجـــرة كطيـــف رحمة... وحين أقرأ مدونة محفوظات أمثالها وحكمها الكثـــيرة العجيبـــة التى كانت تستشهد بها كأحسن منطق فى منطق العامية المصرية نقلا عـــن عمتها الحاجة "*شركس*" الصالحة التى لم تنجب وكـــان همـــها العبـــادة والتوجيه لشباب لعائلة. وحين أرى البقية القليلة مـــن لداتـــها وصديقاتـــها اللائى من طراز كـــاد يفنـــى بـــل حيـــن أرى عجـــوزا مثلـــها فـــى أى مكان... **حين هذا كله شعرت وأشعر أنها خلفت لقلبى زخيرة قيمة مـــن الحزن الثمين اللذيذ يقتات منه فى أزمات القحط الروحى**[٢]).

- ***صور متفردة:-***

قصيدة الرثاء لها طابعها الخاص،فهى تكاد تكون مقصورة على بكـــاء الأم، ومع ذلك نجد فيها الفخر من الشاعر بنفسه ، ونجد ظـــروف إنشـــاء القصيدة تلقى بظلالها على الأبيات فى صور متفردة فى كل قصيدة علـــى حدة.

---

[٢] الرسالة: العدد ٦٥٢

ومن ذلك ما وقع لشوقى حين بلغة نبأ وفـاه الأم وهـو فـى منفـاه بالأندلس بعد قيام الحرب الضروس ، ***ومن هنا فقد ألقت ظـروف النفـى والحرب بظلالها على تلك القصيدة :-***

حافت بما أسلفت فى المهد من يد	واوليت جثمانى من المنة العظمى
وقبر منوط بالجلال مقلـــد	تليد الخلال الكثر والطارف الجمـا
وبالغاديات الساقيات نزيلـه	من الصلوات الخمس والآى والأسما
لما كان لى فى الحرب رأى ولا هوى	**ولا رمت هذا الثكل للناس واليتمـا**
ولم يك ظلم الطير بالرق لى رضا	**فكيف رضائى أن يرى البشر الظلمـا ؟**
ولم آل شبان البرية رقـة	**كأن ثمار القلب من ولدى ثمـا**
وكنت على نهج من الرأى واضح	**أرى الناس صنفين الذئاب أو البهمـا**
وما الحكم إلا فى أولى البأس دولة	**ولا العدل إلا حائط يعصم الحكمـا**

كان الشاعر قد نفى إلى بلاد بعيدة عن وطنه ، ومن هنا فقد جاء فـى قصيدة الرثاء ذاك التشوق والحنين إلى مصر ، ***وما يحسـه فـى البـلاد الغريبة وما يعانيه:-***

نزلت ربا الدنيا وجنات عدنهـا	فما وجدت نفسى لأنهارها طعما
أريح أريج المسك فى عرصاتها	وان لم أرح مروان فيها ولا لخما
إذا ضحكت زهوا إلى سماؤهـا	**بكيت الندى فى الأرض والبأس والحزما**
أطيف برسم أو ألم بدمنـة	أخال القصور الزهر والغرق الشما
فما برحت من خاطرى مصر ساعـة	**ولا أنت فى ذى الدار زايلت لى وهما (١)**

(١) ديوان أحمد شوقى : حـ٢ صـ ٥٣٧

وهذا الحنين إلى الوطن ، والحديث عن الحرب فى قصيـــدة الرثـــاء عند شوقى جاء لظروف خاصة وهى ظروف الحرب والنفى وقت إنشـــاء القصيدة.

وفى قصيدة العقاد فى رثاء أمه ، نلمح أمرا خاصا وهو ذاك النعـــى الكاذب الذى وصله ينعى أمه ، ***فبدأ قصيدته به :-***

لقد كذب الناعى وأنعم بكذبـــــه فلا صدق الناعون يوما ولا همـــوا
فزعت لخطب الموت والموت واحد فكيف احتمالى فيك مرتين يا أم (٢)

لقد اتضح كذب الخبر الذى ساقه الناعى، وما أعظم أن يكـــون هـــذا الخبر كاذبا، وأن تبقى أمه بصحة وعافية، فلا صدق الناعون يومــــا. إن الإنسان لا يحتمل وقع الخبر وأثره عليه إذا ما نعيت إليه تلك الأم ، فكيـف باحتماله مرة كذبا ومرة صدقا ؟.

- **الفخر فى قصيدة الرثاء:-**

وهو من الموضوعات التى جاء ذكرها فى قصيـــدة الرثـــاء قديمـــا وحديثا ، وقد افتخر قديما المتنبى بنفسه وهو يرثى جدته ، واقتفـــى أثـــره أحمد شوقى وهو يرثى جدته أيضا.

---

(٢) ديوان أحمد شوقى : حـــ٢ صـــ ٥٣٧

● **فإذا قال المتنبى :-**

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

قلده شوقى فقال:-

ولو لم تظهرى فى العرب إلا بأحمد كنت خير الوالدات

وهو يفخر بنفسه فى بقية القصيدة واصفا نفسه بأنه أحكـــم الشـــعراء وأبلغ الكتاب ، وهو صائن للأعراض ، وحافظ للعهود. قد خـــبر الدهـــر وتعلم الصبر على النوائب ، وقد علمه الدهر أن يكون حذرا ، وإن كـان لا يغنى حذر من قدر ، ***ولكنه يخشى المباغتة:-***

فكان الوالدان هـــدى وتقـــوى وكان الولـــد هـــذى المعجـــزات
ولو لم تظـــهرى فى العـــرب إلا بـــأحمد كنـــت خـــير الوالـــدات
تجـــاوزن الولائـــد فـــاخرات إلى فخـــر القبـــائل واللغـــات
وأحكم من تحكم فى يـــراع وأبلغ من تبلغ مـــــن دواة
وأبرأ مـــن تـــبرأ مـــن عـــداء وأنـــزه مـــن تـــنزه مـــن شمـــات
وأصون صائن لأخيـــه عرضـــا وأحفظ حـــافظ عـــهد اللـــدات
وأقتـــل قـــاتل للدهـــر خـــبرا وأصـــبر صـــابر للغاشـــيات
كـــأنى والزمـــان علـــى قتـــال مســـاجلة بميـــدان الحيـــاة
أخـــاف إذا تثـــاقلت الليـــالى وأشـــفق مـــن حقـــوق النائبـــات
وليس بنافعى حذرى ولكـــن إباء أن أراهـــــا باغتات(١)

(١) ديوان شوقى جـ ٢ صـ ٤٠٠ دار نهضة مصر تحقيق د/ أحمد الحوفى

ويرثى أمه بعد أن أتاه الخبر وهو فى منفاه فى الأندلس ، ويفتت الحزن نياط قلبه ، ومع ذلك لا يترك الفخر فى قصيدته. ولعل ذلك من تأثير معارضته للمتنبى فى رثاء جدته.

فهو يختم قصيدتــه مخاطبــا والدتــه مادحــا إياهــا مثنيــا عليــها من ناحية ، ***ومفتخرا بنفسه من ناحية أخرى:-***

لئن فات ما أملتــــه مـــن مراكـــب	فدونك هذا الحشد والموكب الضخمــا
رثيــت بــه ذات التقــى ونظمتــــه	لعنصره الأزكـــى وجوهـــره الأسمـــى
تحتــك منــاجيب العــلا ونجيتـــــها	فلم تلحقــــى بنتـــا ولم تســـبقى أمـــا
وكنت إذا هذى الســــماء تخــايلت	تواضعت لكن بعـــد مـــا فتـــها نجمـــا
أتيت بــــه لم ينظـــم الشـــعر مثلــــه	وجئت لأخلاق الكـــــرام بــــه نظمــــا
ولو نمضت عنه الســمــــاء ومخضت	به الأرض كان المزن والقبر والكرما(٢)

فإن كان قد فات هذه الأم مـــا كـــان يليــق بمثلــها مـــن مراكـــب ومواكب، فهاهى أبياته وقصائده تقوم هذا المقام، فهى تستحق هذا، وهـــى من المناجيب التى لم يلحقها ولم يسبقها أحد، وهى رغم ذلك كان يجللـــــها التواضع رغم إنجابها لهذا الشاعر الذى لم ينظم الشعر مثله أحد.

ونجد هذا الفخر فى قصيدة مطران وهو يرثى جدته ، ولكـــن نغمـــة الفخر هادئة متطامنة وليست شخصية ، ***فهو يمدح جدته بأنها أنجبت نسلا عظيما كلهم يعتلى صهوة المجد:-***

(٢) الديوان جـــ ٢ صـــ ٥٣٧

يبكيـــــك نســــــل كثــــــير	أنجبتــــــــه للمعـــــــــالى
بـــــين الكـــــهول وبـــــين	الشـــــباب والأطفـــــــال
أهلـــــــة وبـــــــدور	مـــــن فتيـــــة ورجـــــال
وأنجــــــم وشمـــــوس	مـــــن عفـــــة وجمـــــال
تفاوتوا طبقـــــــــات	فى السن لا فى الكمـــــال(١)

وعندما يرثى البردونى أمه، ويذكر خوفها وحدبها وإشفاقها عليــه ، يفتخر بنفسه، ليسعد أمه فى قبرها بأنه قد أصبح رجلا تفتخر به الأمــهات. فإذا كانت الأم قد خافت على مصيره، وفزعت لعماه، فقـــد آن الآوان أن تطمئن وأن يهدأ بالها، فقد أصبح طائر الصيـــت، ***يمــلأ التــاريخ مجــدا وخلودا***:-

كــم بكــت عينــاك لمــا رأتـــا	بصرى يطفا ويطـــوى فى الحجـــاب
وتذكــــــرت مصـــــــير	بـــين جبينــك جــراح فى التـــهاب
هـــا أنـــا يـــا أمـــى اليـــوم فـــتى	طائر الصيـــت بعيـــد فى الشـــهاب
أملأ التاريخ لحنًا وصـــــدى	وتغنى فى ربا الخلد ربـــــابى[١]

*في حياة الأم :-

هل هي مقولة صحيحة تلك التي رصدت خلو الشعر العربي من الحديث عــن الأم إلا حين موها ؟والتي تقول (وفى إمكاننا أن نمر سريعا بعدد كبير من الشعراء حتى نصـــل إلى أبي الطيب المتنبي فنجده يذكر الأم في قصيدته التي رثى بها جدته لأمه، فهو لم يذكـــر الأم إلا بمناسبة الموت ، وكذا الحال في شوقي ٠٠٠ فديوان شوقي الكبير لم تحظ الأم إلا

---

[١] ديوان الخليل : حـــ ٢ صـــ ٥٥٤

[١] ديوان عبد الله البردونى : المجلد الأول صـــ ١٣٨ دار العودة، بيروت طبعة أولى سنة ١٩٧٩ م

بقصيدة واحدة ، ومتى؟ بعد مماتها ٠٠٠ حتى القصيدة لم ينظمها كلها فى أمه، وإنما غلف عاطفته بمناجاته للوطن ٠٠٠ حتى العقاد لم ينشد قصيدة عصماء عن أمه ،إلا بعـــد أن طواها الموت تحت ردائه الكالح ،عندئذ فقط صدرت الأنغام الحزينة من قيثـارة العقـاد (١) وان كانت هذه الدراسة على إيجازها قد أشارت إلى بعض القصائد التي تحدثت عـن الأم في حياتها مثل قصيدة روحية القلينى"الأم في ديوانها"أنغام حالمة" (٢)

والناظر في ديوان الشاعر أبي فراس الحمدانى ، يجد صلته بأمه في حياتها،وفى أسـره لم تنقطع بل تحدث إليها يوصيها بالصبر ويمنيها بالأجرالذي ينتظرها جزاء هــذا الصـبر ويضع نموذج الخنساء أمامها في صبرها على استشهاد أولادها وصبرها *وقولها : الحمـد لله الذي شرفني باستشهادهم* :-

فيا أمتا لا تعدمي الصبر إنه	إلى الخير والنهج القريب رسول
ويا آمتا لا تخطئ الأجر إنه	على قدر الصبر الجميل جزيـــل
آمالك في ذات النطاقين أسوة	بمكة والحرب العوان تجـــول [٣]

*** في العصر الحديث:-**

وقد شغلت الأم في عصرنا الحديث فكر الشعراء في حياتها،فتحدثوا عنها وعــن فضلها ودورها واثرها ٠ ومن هؤلاء الشعراء محمد عبد الغنى حسن، فى ديوانـــه"سـائر على الدرب" وقد صدّره بقصيدة عن الأم واصفا إياها بالحب الخالص ،*فـــهي ملهمتـه ومعلمته هى التى علمته حب زوجته وحب الدنيا وتذوق الجمال وكل جمـال بغـير أم باهت المعالم وكل ضوء فى غياب الأم ظلام وجمود* :-

---

(١) الأم في الأدب : فتحي الابيارى صـ٣١

(٢) المرجع السابق صـ٣٢

(٣) ديوان أبي فراس الحمدانى صـ٢٣٣

الحب يا أماه منك مزاجـــــه	مهما شربنا فيه من أكواب
نلهو بما سمح الزمان بحسنه	ونطيق كل شقاوة وعــذاب
ونكاد نلقى فيه كل خســـــارة	ونكاد نحمل فيه كل تبـــاب
لولاك لم نعرج على أعتابـــه	يوما ولم نلمم على الأبواب
لكن حبك فيه كل قداسة ألـــ	مغنى وكل طهارة المحراب
أماه بين يديك زوجتى التـــى	أحببتها فحببت فى شبابـــى
ما الذنب ذنبى إن كلفت بحبها	إن وصلت بحبها أسبابـــى
فالحب منك عرفته وسقيتـــه	مترقرقا كالجدول المنساب
أنت التى سلسلته فى هيكلـــى	وأذبته كالشهد بين لعابـــى
وأذعته كالعطر ينفخ منكبـــى	وتفوح من أرج به أثوابى

ويواجه الشاعر خطابه لأمهات اليوم محييا ومعظما لهن ، فهن أنفاس الحياة وطيبـها وجمالها :-

يا باذلات الحب طهرا صافيا	في غير ما جلب ولا تصخـــــــاب
انتن أنفاس الحياة وطيبهـــا	وجمالها الدفاق بالأطيـــــــــاب
كل الجمال بغير أم باهـــت	لا حسن فيه وكل ضوء خابي [1]

وتنشر الشاعرة جميلة العلايلى ديوانها نبضات شاعرة فتهديه إلى أمــــها وولدهــا وتصدره بتسع قصائد عن الأم متتبعة في نبضات شاعرة فراقها لأمها بالزواج ، وعيـــد ميلاد الأم ، ومرضها ، رغير ذلك من أحداث إلى أن تموت الأم.

والشاعرة جميلة العلايلى تصور فراقها للأم بالزواج والعيش بدونها ، وتكشــــف عن حزنها لأمها وقد بدأت تزيل :-

وقضى زمانى بالفراق كأنه	لا بد أن ترمى الحياه سهام

[1] سائرعلى الدرب محمد عبد الغنى حسن صـــ٧ المكتبة العربية القاهرة سنه ١٩٧٤م

وأرى الحياة بغير وجهك قفرة | فالعين تذرف والدموع جسام
وأرى الليالى موحشات جهمة | سيان عندى الضوء والإظلام
يا أم لا تبكى الفراق ولا النوى | فلسوف تجمعنى بك الأيــــام
أيروم قلبك أن يحطمه الغنـــى | وله أعيش وتعـــــذب الآلام
يا أم ما نعمتى حياتى إن خلت | من قلبك الحانى كذاك حرام

إلى أن تقول :-

لهفى على الأم الرءوم من الضنى | ومن الهموم كأنهن ضــــرام
لهفى على الكنف الظليل مضت به | ريح الخريف فعاد وهو حطام
لهفى على الروح الطهور وقد بدا | طيفا شفيفا قد طواه هيام [1]

وهكذا نرى جزع الشاعرة على أمها وتصويرها لها وقد أصابها الضنى والهموم *وقد حولتها السنون إلى حطام*

وترجع الشاعرة بذكرياها إلى الوراء فى قصيدة تحت عنوان (رغم البعاد أنا معـك) تتذكر فيها سهرها مع أمها وهى تحكى لها الحكايات بصوت حنون ، وتتدفق الذكريات *التى يخفق لها القلب وينبض الفؤاد :-*

هل تذكرين وقد سهرنا فى الليالى الممطرة
فقضيتها أصغى إلى حلو الأغانى الساحرة
فإذا قصصت رواية تحكين صوت السامرة
من ذا يظن بان شدوك وحى شعر الشاعرة

إلى أن تقول بعد أن تعدد ذكرياها فى الطفولة والشباب والزواج :-

أه من الذكرى توشوش أيها الأم الرءوم
فى كل نبض للفؤاد تهيم بالقلب الهموم

---

[1] نبضات شاعرة : جميلة العلايلى صـــ١٣

وله خفوق الطير فى يوم العواصف والغيوم

كم ذا أعانى حيرة بين البشاشة والوجوم [١]

وتنشد الشاعرة القصيدة تلو القصيدة فى "عيد الام" و"سلاما يا أمى" و"ميلادهـا" و" أمى تعالى" و"رجع الأنفاس" حتى تصل إلى تلك القصيدة التى تصور فيها مرض أمــها وصدى وجيعتها ، مع أن الشاعرة قد الفت المواجع فقد نالت منها تلك الوجيعة وأثرت فيها ، وهى تضرع إلى هذا الداء العضال أن يرفق بأمها ، وتخاف أن يكون نجم الشـــفاء قد ضل الطريق ، وتضرع إلى الله أن يشفيها:-

إنى ألفت مواجعى	حتى غدت لى كالصلاة
يا أم داؤك نال من	قلبى المعذب ما اشتهاه
يا داء رفقا بالأمو	مة إنها كنز الحيـــاة

إلى أن تقول :-

أيكون نجم شفائها	قد طاف دنياها وتـــاه
ضل الطريق لبرجه	فمتى يطالعنا ضياه [٢]

وليس المرض فقط هو الذى يحرك المشاعر والأحاسيس تجاه الأم فى حياتها ، ولكن الاغتراب وسماع صوت الأم عبر الهاتف فى عصرنا الحديث مما يحرك المشاعر ويثير قيثـلوة الشعر وتفـــور المشـــاعر والعواطـــف فى قصيـــدة "دمعـــة علـــى سماعـــة الهـــاتف" *يقول فيها الشاعر :-*

بعث الصوت كامن الأشجان	مثلما سرنى فقد أبكانـــــــــى
نقل الهاتف الحديث المرجى	فسرى الدفء والرضا فى كيانى [١]

---

(١) نبضات شاعرة:صـــ١٩

(٢) المرجع السابق صـــ٢٧

(١) إلى حواء : عبد الرحمن صالح العشماوى صـــ٣٩،٤٠،٤١ الناشر : مكتبة الأديب -الرياض الطبعة الأولى سنه١٤٠٦ هـــ

أى صوت هذا الذى خالط النفس	وأحيا النشيد فوق لسانى
انه صوتها نشأت عليـــــــــه	نغم فيه قصة الإنســــــــان
صوتها لم يزل يعانق قلبــــى	فيه فيض من عطفها والحنان
أيها الصوت أين تلك الليالــى	كيف حل النوى محل التدانى
صوت أمى لا شك لكن عينــى	لا تراها ولا ترى إخوانـــى

والشاعر هنا كما نرى يعبر عن تجربة عصرية هى الاغتراب من ناحية ،والحديـــث عبر الهاتف وسماع صوت الأم عبر مسافات طويلة ، فهو يسمع صوتها ولا يملـــى عينــه برؤيتها ، ولذلك يصرخ قائلا مخاطبا هذا الصوت الذى لم يجد غيره ولم يحس سواه : أيها الصوت أين تلك الليالى ؟ لم أصبحنا فى هذه الغربة ، وحل النوى محل التدانى ؟وإذا كان الصوت قد أسعده فقد أبكاه ،لانه تذكر أمه وتاق إلى رؤيتها .

ونرى الشاعر مرة أخرى يخاطب أمه ويدعوها إلى نبذ اليأس والثقة بالله والرضـــا بما قسم الله ، فقد وطن نفسه على حمل الهموم :-

أماه لا يتأسى فالله يرعانــــــــا	وفيض إحسانه فى البؤس يغشانا
ثقى به والبسى ثوب الرضا وخذى	من الخضوع له نهجا وعنوانـــــا
كل الأمور التى تأتى يقدرهـــــا	ربى وما شاءه فى أمرنا كانـــــا
أماه ما قيمة الدنيا إذا عصفـــــت	بها الظنون وصار المرء حيرانـــا
وطنت قلبى على حمل الهموم فما	يعضه البؤس إلا زاد إيمانـــــــا

ويعلن الشاعر أن هذا الصمود وهذا الرضا وذاك الصبر ، كل هذه المعـــانى قـــد استقاها من أمه ، تلك التى كانت الظل فى القيظ والنور فى الظلام ، والورود والريـــاحين فى درب الصحراء المقفرة :-

منك استقيت صمودي في الحياة فما	أعلنت يأسا ولا أعلنت خذلانا
مضيت في رحلتي والقيظ ملتهـــــب	فكنت ظلا على دربي وأغصانا

فكنت في ظلمتي نورا أسير بـــه   وفى صحارى الأسى وردا وريحانا

ورغم صمود الشاعر وصبره ، ورغم ثقته بالله ، ومع رضاه بالمقدور ،إلا ان أمـــرا واحدا فوق طاقة الشاعر وصبره واحتماله ، وهو فراقه لأمه وبعده عنها :-

أماه كل الجراحات التى اشتعلت ٠٠ تهون لكن جراح البعد ما هانا [1]

ومرة أخرى يصحو الشاعر على مناجاة الأم لربها فى دعاء ممزوج بعبرات الحنان ، فتأسره هذه اللوحة ، *ويسجلها فى شعره ،ويهتف بأبيه أن يعود إلى الحياة ولو للحظـــــة ليرى وفاء الأم وبرها:*

أبى وقد صرت بعيد المدى	وهل يرد المرء من قبـــــره
ليتك تصحو يا أبى ساعـــة	لكى ترى الإخلاص فى قدره
لكى ترى مرتع أحلامنـــــا	نستروح الآمال من زهـــــرة
لكى ترى أمى على عهدها	ترضعنا الإيمان من زهره (٢)

وتهيج عاطفة الشاعر مرة أخرى فى القصيدة تلو القصيدة واصفا حنـــان وعطـــاء الأم ،*ومصورا عجزه عن وصف هذه الأم وعطفها وحنانها* :-

رأيت بعينك المحبة واللطفـــا	وشاهدت يا أماه فى وجهك العطفـــا
حنان وإشفاق على ولوعـــــة	لبعدى فما اغلى الشعور وما أرفـــى
تحسين بالآلام حين أحسهـــــا	وتشفين من آثارها عندما أشفــــــى
يؤنبنى فيك الضمير لأنــــــه	يرى أن شعرى فيك لم يبلغ الوصفا
وذلك حق ، لو وقفت قصائدى	وكل كتاباتى عليك لما وفـــــــى [1]

[1] إلى حواء :صـــ٥

(٢) إلى حواء :صـــ٥٨

[1] إلى حواء : صـــ١٥١

وشاعر آخر يهدى شعره إلى أمه معترفا بأنها قبلـــة الحنـــان والـــدفء والغـــذاء والشراب

قبله منك أول القبـــــــــــلات	يا حنانا يحوطنى فى حياتـــــــــى
يا ابتسام الحياة فى ناظـــــرى	الغضى وأنسى فى وحشة الحالكات
أى طوق يحوطنى كل حيـــــن	ملؤه الدفء صادق اللمســــــات
وغذاء من الشوائب صـــــاف	سائغ الشرب مغدق البركـــــــات
قد ترعرعت فى حماك صغيرا	وأنا اليوم فى رجال كمـــــــــاة
بين جنبيك قلــــــب أم رءوم	لم يزل نابضا كريم الهبــــــــات
كم أرى الدمع من مآقيك يهمي	ذاك دمع الحنان قبل شكاتـــــــــى
أنا يا أمي الحنون نشيـــــــد	يتغنى فى أعذب النغمــــــــات
آنا يا معدن الحياة هتــــــاف	فيه أو في الحقوق للأمهـــــات
أنا يا بسمة الوجود سجـــــل	ملأ الدهر ناصع الصفحـــــــات
فاقبلي شعري المضمخ بالـــود	دعاء من أخلص الـــدعوات (٢)

* *محنة أم :-*

وقد تتعرض الأم لمحنة من المحن ، فتذوب نفس الشاعر أسى وحسرة ، ويســـجل ذلك فى شعره ، وممن ترض لذلك من الشعراء "المازنى" فأخذ يواسى أمه في غاشية مـــن غواشى الأسى ، *ويدعوها إلى عدم الجزع :-*

يا أم لا تجزعي مما يداهمنـــا	من الخطوب ولا تأسى لما فاتــــا
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة	ويقسم الله أرزاقا وأقواتـــــــا
وكل ضائقة تعرو إلى فـــــرج	وان لليسر مثل العسر ميقاتـــــا
ضل الذى يرتجى تأخير قسمتــه	قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتا (١)

(٢) ترانيم الرمال :"قصيدة أمي" صـ٨٠ عبد العزيز النقيدان، مطبوعات نادى القصيم الأدبي بريده.

(١) ديوان المازنى جـ٢صـ٢١٣

ويعلق العقاد على هذه الأبيات قائلا : هذه الأبيات قد أودعت نفـــــس المـــازنى العطوف الذى يؤلمه الحزن فى نفس أمه ، ولا يشغله عنه حزنه وألمه (٢)

*جنون أم :-

أهاض حناجى مذ أصيبت بلوثة ... فضاع بها منك التودد والبر

يا لها من محنة قاسية تلك التى تعرض لها الشاعر عندما أصيبت أمـــه بـــالجنون ، واضطر لتقييدها وحبسها رحمه بها ، وقد لجأ إلى الطب فعجز الأطباء وكلـــت حيلـــهم فلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ٠ وصور هذه التجربة القاسية على نفسه ، فراح ينفثـــها فى شعره ألما ودموعا ٠ وهو يتوجه فى بداية قصيدته إلى أمه مستعطفا إياها مؤكـــدا أن مـــا يفعله ليس عقوقا بها، ولكنه يفعل ذلك والألم يعتصره :-

حنانيك أمي لا عقوق ولا نكـــــر ... ولكنها الالأم فى قبضتي سفـــــــر
قرأت به الابيات تفرى حشاشتـــــى ... ويعشى بها طرفى ويطوى بها العمر
فمن مقلتى الدمع السخين سحائبــا ... على الخد يهميها فؤاد هو البحــــر
براكين من نار يؤججها الأســـــــى ... وثورات ملتاع يدوى بها الصـــــدر
حنانيك يا أمي فالهموم تلاحقـــــت ... ولولا البلاء المر ما حير الفكـــــر
قساوات الام وشكوى متاعـــــــب ... وينهشنى من وقعها الناب والظفـــر
فان قلت صبرا عاث بالصبر عاصف ... يجرعني كأسا ثمالتها الصبـــــــر
فأختال نشوانا ويا نشوة الأســـــى ... تغيب بإحساسي كما يفعل الخمـــر
فأهذي كما يهذى المضيع لبـــــه ... ويلهب همي في جوانحي الجمـــر
فاحسب أن الدمع يطفـــــى أواره ... فابكى عسى بالدمع ينجبر الكســـر
إذا بنصيبى مهجة قد نثرتهـــــا ... وكان جزائى انه استفحل الأمــــر
فوزعت جرحى بين قلبى ومقلتــــى ... وفاضت قروحى حين خاننى الصبـــر
حبست أنينى ثم أرسلت عبرتـــى ... يغالب شكواي المكبلة الجهـــــر

---

(٢) ديوان العقاد جـ٢ص٨٦٣

ولم اشك عدما لم ولم أرج حاجــة ولكن زمانى طبعه الكيد والغــــدر
أهاض جناحى مذ أصبت بلوثـــــة فضاع بها منك التودد والبــــــر
وخلاك رهن القيد تهذين ليس لـــى سوى انة المذبوح لاح له القبــر
وما القبر عندى غير سجنك ينطوى عليك كما يطوى بأحشائنا الســـر
فان قلت حلوا القيد قالوا جنونهـــا عضال وهذا القيد يفرضه الحــذر
فما حيلة أستطيع إلا بذلتهـــــــــا فعدت وإن اليسر فى حليتى عسر
وان كان فن الطب قصر عامـــــدا إلى الله أشكو له النهى والأمــــر
حنانيك يا أمى حبستك رحمـــــــة فليس على اليوم عتب ولا وزر [١]

سجن الأم قبر بالنسبة له ، وهو الذى يضعها بيده فى هذا القبر ، ويطلب منهم أن يفكوا هذا القيد ، وأن يطلقوها من أسرهم أو من قبرها إذا بهم يوقظوه علـــى الحقيقـــة الفاجعة " جنونها عضال " وبذل الحيل ، ويعجز الطب ، ولا يجد البرد والســـلام إلا فى التسليم بقضاء الله "إلى الله أشكو له النهى والأمر" وربما بدت هذه تجربة شخصيه عاشها الشاعر وانطق يعبر بقصيدته عن هذه التجربة ، فالقصيدة ليست فى الأم ولكنها فى هـذه التجربة التى عاشها الشاعر مع هذه الأم. *ونقول إنها تجربة مع مرض أمه ومع ذلك نـــوى الشاعر نفسه يخاطب أمه فى عيد الأم داعيا لها بعمر مديد :*

تهان وحبات القلوب عقــــــــود بيوم بأحلى الأمنيات يعود
على من نفدى بالحياة حياتهـــــا ونطمع منها بالرضا فتجود
على أمنا من لا نزال بحبهـــــــا نغنى وخلجات النفوس تعيد
وأمالنا أن يحفظ الله روضـــــــة شذاها دعاء والحنان ورود
ونشدو بها والكون يرجع صادحا لتحيا وأفراح الحياة بنـــود
فيمنحنا المولى الكريم إجابـــــة بعمر مديد وهى فيه نشيد [١]

---

(١) مجموعه النيل : طاهر زمخشرى صـــ٢٨٩الناشر تمامه ، جده ، العوديه الطبقة الأولى سنه١٩٨٤م
(١) مجموعة النيل : طاهر زمخشرى صـــ٦٠٦

قصائد كثيرة وشعراء كثيرون تحدثوا عن الأم فى حياتما وتحدثـــوا عـــن حنانهـــا وعطائها وقلبها. ونختم هذه الاستشهادات بقصيدة الشاعر القروي رشيد سليم الخـورى تلك التي عنون لها بـــ*(أمي) والتي يقول فيها* :-

ولو عصفت رياح الهم عصفـــا	ولو قصفت رعود الموت قصفا
ففي أذني عند النزع صـــــوت	يحول لي عزيف الجن عزفـــا

فيطربني وذلك صوت أمي

ولو ملئت لي الجامات صبـــرا	ولو جرعت حلو العيش مـــرا
ففى شفتى ينبوع عجيـــــــب	يحول لى كؤوس الخل خمـــرا

فيسكرنى وذلك ذكر أمى

ولو هجمت على قلبى البلايـــا	وهدت سور آمالى الرزايـــــا
فإن بباب فردوسى ملاكــــــــا	يسل السيف فى وجه المنايـــا

فيحرسنى وذلك طيف أمى

ولو أنى رزئت بفقد مالـــــــى	وأصحابى وأشعارى الغوالى
فلى كنز ، وقاه الله ، اغلـــى	من التاج المرصع باللآلـــــى

ألا وهو الحنان بصدر أمى

ولو يارب فى اليوم العظيــم	تلوت على حكمك بالجحيـــــم
فلى أمل بأن ستعود يومـــــا	فتصفح فى جهنم عن أثيـــــم

وقلبك يستحى من قلب أمى [١]

وإذا كان صوت الأم وذكرها وطيفها وصدرها الحنون وقلبها الطيب هو ما يمـــلأ حياة رشيد سليم الخورى بالسعادة والاطمئنان فإن شاعرة أخرى هى روحيـــه القليـــنى صورت هذا المعنى فى قصيدتما التى أخذت العنوان نفسه "الأم" فالأم بسمتها وهدايتـــــها وأنيتها ومرشدها فى حالك الظلمات ، وفى قلبها عطف الوجود ، وهى التى تمسح دمعها

[١] ديوان القروى : رشيد سليم الخورى ، الجمهوريه العربية الليبية ، وزاره الثقافة جـــ١ صـــ٢٣٦

إذا قست الحياة ، وهى التى تسهر على راحتها إذا مرضت ، ولو اســتطاعت لافتدهّـا بنفسها ، وتذرع فى نفسها الثقة بالله عز وجل. وتذكر الشاعرة أمــر الله تعــالى بــبر الوالدين وتعلن الشاعرة أنها لو لم يكن تعرف إلها يعبد لعبدت الأم فهى نــور الحيــاة ، لكنها مؤمنة عابدة لله تعالى ، ولذلك فهى طائعة لربها بارة بامها وهى عاجزة عن التعبــير عما تكنه نحو هذه الأم :-

من وحى قلبى من تألق ذاتـــــــى	من نبع وجدانى سرت دعواتـــــى
ووقفت فى المحراب خاشعة وفـــى	نجوى الدعاء همست فى السجدات
يارب صن أمى وسر سعادتــــــــى	يارب واحفظها بحق صلاتــــــى
من ذا الذى ادعوه غيرك حافظــــا؟	أمى الحبيبة اجمل المنحـــــــات
هى بسمتى هى عالمى هى مؤنسى	وهدايتى فى احلك الظلمــــــات
فى قلبها عطف الوجود بأســـــرد	كم ذللت برضائها عقباتــــــــى
وبساعدين من الحنان تضمنـــــى	فأكاد اسمع لهفة الخفقـــــــات
تقسو الحياة فتمسح الدمع الـــذى	قد سال منهلا على الوجنـــــات
وتحيله بيد الحنان بشاشــــــــة	تبدو كطيف النور فى القسمـــات
وإذا مرضت جفا الرقاد عيونهــــا	وتوسلت لله بالعبــــــــرات
وتذرعت بالصبر وهو سلاحهـــا	فى كل سانحة من اللحظــــات
تدرى لواعج ما بنفسى من أســى	وتحس بالإيحاء دون شكاتــــــى
مهما أحاول أن أدارى لوعتـــى	فشعور أمى نافذ اللمحــــــات

وتعكس الشاعرة إيمان تلك الأم وهى تبثه فى نفس ابنتها فتعيد إلى نفسها السكينة والهدوء لإحساسها بأن مدبر الكون موجود يرعاها ويبارك خطواتها فى لوحـــه هادئـــة فتقول

وإذا شكوت لها الحياة وما بهـــا	ردت بإيمان وحلو أنــــــــــاة
إن الإله مدبر الكون الــــــذى	يرعى الخلائق يمنح البركـــــات

هو وحده يرعاك من عليائـــــه	ويبارك الروحات والغدوات
فثقى بربك يا ابنتى لا تيأســــى	من رحمة الله العظيم الذات

وتتجه الشاعرة بالخطاب إلى ربها، إلى رب العزة ،إلى من وهب الحياة فى صـــورة الأمومة الممزوجة بالعطف والرحمة ، ووصى بها فى محكم القرآن ، إنها تنفذ أمر الله تعـالى ، فهى نفديها بروحها وتبذل ذاتها لهذا الفداء . وهى تصونها فى مقلتيها خوفا عليها مـن الردى، وهى تطيعها فى الجهر والسر ، وهى من شده حبها لهذه الأم ، لو لم تعرف ربهـا إلها يعبد لعبدت هذه الأم نورا للحياة ، *ولكنها عرفـــت ربهـا وعبدتـه وأطاعتـه فى بر هذه الأم* :-

يا من وهبت لنا الحياة أمومة	ممزوجة بالعطف والرحمات
وبمحكم القران توصى دائمـا	بالأم افديها وابذل ذاتـــى
وأصونها فى مقلتى من الردى	وأطيعها فى الجهر والخطوات
لو لم تكن ربى وسر هدايتـى	لعبدت أمى فهى نور حياتـى
لكننى يارب مؤمنة بمـــن	خلق الحياة وأنزل الآيـــات

وفى نهاية القصيدة ، تتحدث الشاعرة عن خلق الأمومة فهو رحمة ومحبة كـالغيث ينهل فوق الربوات، وهو النسيم الذى يسرى فينعش روضتها وتتجه إلى أمها معتــذرة أنها مهما فعلت فلن تؤدى شكرها ومهما قالت فلن تستطيع أن تعبر عما فى نفسها:-

فمرى ألب إرادة قدسيـــة	أنا رهن ما تبدين من رغبـــات
أماه عفوا أن عجزت عن الوفا	قد جل حبك عن مدى كلماتـــى [1]

وهكذا نرى شعراء العصر الحديـــث قـد التفتـوا إلى الأم فى حياتها وبعـد مماتها ، وصوروا تلك الأم عطفا وحنانا ، وهداية ونورا ، واعترفوا بجميلـها وبعظيـم

(١) ديوان ك ابتهالات قلب روحيه القلينى صـ٨٨ طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنـــه ١٩٦٩م

أثرها ، وسجلوا لحظات الغربة ، والابتعاد والشدة والضيق والمرض،كما سجلوا لحظات الفرحة والابتهاج • ولعل هذه الاستشهادات المتواصلة ترد على من قال إن الشـــاعر لم يعرف أمه إلا بعد الموت بقصيدة يرثيها بها •

بعد رحيل الأم :—

من الشعراء من رثى أمه بعد موتها بقصيدة أودع فيها حزنه وهمه وبكى عطفـــها وحنانها وفقدها، ثم سكت بعد ذلك، وهذا شان كثير من الشعراء ومن الشـــعراء مـــن ظلت الذكرى تؤرقه فيذكر أمه عاما بعد عام •

ومن هؤلاء الشعراء جميلة العلايلى عندما تذكرت أمها بعد عام من وفاتها وكـــان عيد الأم فى غيبتها مجسدا لهذا الفقد أيما تجسيد،فتهيج عاطفتها وتنشد قصيدتهـــا الـــتى تستهلها بقولها (العيد عاد ولم تعودى) وتروح تكرر هذه الجملة إحساسا بالفقد وتجسيدا لعدم العود • عاد عيد الأم ولم تعد هى، لم تعد الملهمة ، ولم تعد مـــن كـــانت تغـــذى أحلامها بالسعادة ،لم تعد من كانت الرى والشبع وبيت القصيد:—

العيد عاد ولم تعـــــودى   يا من ملأت بها وجودى
الطير يشدو فى الخمائل   اين ملهمتى نشيـــــــدى
وارى فؤادى لاهثـــــــا   مستنزفا دمع القصيــــد
وتغيب أحلامى التـــــى   أسعدتها فى كل عيـــــد
العيد عاد ولم تعــودى   فأين ساقية الـــــورود
بل أين من كانت تـــوا   لى الطير من حب الحصيد
بل أين أين وأين يـــــا   أمى وكم لك من مزيـــــد؟
إنى نظرت إلى الحيــاة   ولم أجد بيت القصيـــــــد [1]

---

[1] نبضات شاعرة صـــ٣١

وربما ظلت الأم ملهمة للشاعر بعد موتها يستجلى رأيها ، ويستلهم رشدها، ومـــن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد أحمد العزب فى قصيدته " *دروس من سيدة وطنيـــــة* " [٢] والتي يقول فيها:–

أمي
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمني
أن الألوان اقل !!
فالأبيض ليس قطيع الغيم
وليس الأخضر ثوب العشب
ولكن الألوان
تمارس هجرتها المختلفة
فى تنهيدات القلب المبتل
أمى
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمنى
أن الأنثى
تحتل أنوثتها الأحلى
حتى فى غطرسة المطر المنهل
وتعلمنى
أن الممنوع الألف
يظل على شفتيها

(٢) قصيده مخطوطة للشاعر محمد أحمد العزب

يحمل إغواءات اللاممنوع
يظل !!
أمى
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمنى
أن التصفيق لموعظة السياف
يمل يمل [١]

وهكذا نرى تكرار المقاطع " أمي ما زالت رغم رحيل الجسد تعلمني ، فإذا كانت الأم قد رحلت بجسدها ، فما زالت باقية فى تلافيف وحنايا عقل الشاعر وعاطفته تلهمـه أن التصفيق لموعظة السياف يمل.

*بين الأم والأب :-

وأعط إياك النصف حيا وميتا ·· وفضل عليه من كرامتها الأمَّــــا
أقلك خفا إذا أقلتك مثقـــــلا ·· وأرضعت الحولين واحتملت تمَّـا
وألقتك عن جهد وألقاك لـــذة ·· وضمت وشمت مثلما ضم أو شما [٢]
أبو العلاء المعرى

لقد حثنا الدين الحنيف على البر بالأم والأب ، وأولى الأم مزيدا من العنايـــة، وأوصـــى الرسول صلى الله عليه وسلم بها ثلاث مرات : *أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك* [٣].

---

(١) من قصائد مخطوطة بيد المؤلف
(٢) لزوم ما لا يلزم : المجلد الثاني صـــ٤١٦ دار صادر بيروت
(٣) الكامل للمبرد صـــ١٩٨جـــ١ طبعه بيروت

ومن طريف ما يحكى عن معاملة الابن لأمه وأبيه ، ما رواه المبرد فى كتابه الكــامل (٠٠٠٠حدثنى شيخ من الأزد ثقة عن رجل منهم انه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعـــو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تميمية ٠ وسمع رجل يطوف بالبيت وهـــو يدعو لأمه ، ولا يذكر أباه ، فعوتــــب ، فقــال :هــذه ضعيفــة وأبى رجــل يحتــال لنفسه٠ [1] وهذا كلام قد يضحكنا من غفلة قائله وظنه أنه باستطاعة الأب أن يحتــــال لنفسه فى الآخرة ، كما كان يحتال لنفسه فى الدنيا ، ومع ذلك فهو يدل أيضــــا علـــى تفضيل الأم على الأب فى الصورة الثانية ، وفى الصورة الأولى يفضل أباه على أمه. وقــد رأينا هذه الصورة وتلك فى رثاء الأم :ونجد بعـــض الشـــعراء يرتفـــع بمنزلـــة الأم فى شعره، ويؤكد على دورها فى حياته ، ومنزلتها التى تعلو على منزلة الأب على أنه عندمــا فقد أباه لم يشعر بيتم ، *ومع ذلك عندما ماتت الأم أحس عندها باليتم:-*

فقدت أبى طفلا فلم أدر ما الأسى وأفقدتها كهلا فهد الأسى عزمى [2]

وهى حالة خاصة به ، لأنه يشير إلى انه فقد أباه صغيرا، لم يكن على وعـــى فلــم يحس ساعتها بخسارة *،ولكنه عاش وكبر مع أمه وذاق حنانها ولذا أحـــس بـــاليتم ومن هنا يعقب الشاعر بعد هذا البيت بقوله:-*

سلونى أحدثكم عن اليتم بعدها فان اليتيم الكهل اعرف باليتــم

ومع ذلك فهو يوضح قيمتها عنده فهى الأب والابن والخال والعم:-

فان قلت يا أماه أغنانى اسمهـــا عن الأب والأبناء والخال والعــم

ونجد كذلك الشيخ سيد قطب رحمه الله وهو يؤكد على دور الأم ، فقـــد مـــات الأب فقامت الأم بدورها خير قيام ، ولم يشعروا بمـــوت الأب ، وعندمـــا مـــاتت الأم وساعتها فقط ،أحس الابن أنه فقد أباه وأمه ، وأن أباه قد مات اليوم بموت أمه

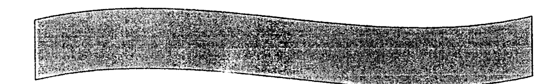
---

(١) الرسالة : العدد ١٢٨ صـــــ٢٠٢٧

(٢) المرجع السابق

" اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحنا شتينا منثورا وإني لأضـــم اليـــوم إلى صدري ابنكما وابنتيكما • أضمهم بشدة لأستوثق من الوحدة ، وأشعرهم بالرعايـــة ، ولكن هيهات هيهات

فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه (٣)



(٣) الرسالة : العدد ٣٨١ صـــ ١٦٠٢ مقال تحت عنوان " أماه "


الفصل الثاني
صـــور فنيـــة

صور فنية :-

حفلت قصيدة الرثاء فى العصر الحديث بالصور الفنية الجديدة غـــير التقليدية، فإذا كان الشاعر فى قصيدة الرثاء يعبر عـــن حزنـــه بصـــورة واضحة وصريحة، بالبكاء والدموع والحزن فإن بعض الشعراء قد ســلكوا طرقا أخرى للتعبير عن حزنه.

**** مشاركة الكون للشاعر في أحزانه :-***

لقد طلبت الخنساء من بنى سليم بكاء فارسهم :-

بنى سليم إلا تبكون فارسكم
خلا عليكم أمورا ذات أمراس [١]

والشاعر في قصيدة الرثاء في العصر الحديث يطلب من الكـــون أن يكون حزينا، ولكنه لا يطلب ذلك بصورة مباشرة كما فعلت الخنساء، إنـــه يستنكر أن تموت أمه والناس جامدون صامتون، والكون يسير كمـــا هـــو والشمس تشرق كما هي. وقد عبر عن ذلك الشاعر محمد العزب في رثـاء أمه وهو يسوق الخبر في مطلع القصيدة بكلمات موجزة "***أمي مــــاتت*** " وهذه الحقيقة التى ساقها توجب من وجهة نظر الشاعر أن يحزن الكـــون كله من حوله، فيا لهول ما رأى الشاعر، إنه يحدق فى عيون الناس فـــلا يبصر حزنا. إنه لا ينظر ولا يتأمل ولكنه يحدق ويدقق، إنه يرجع البصـــر

---

[١] ديوان الخنساء صـــ١٤٨

كرتين غير مصدق أن تكون الناس بهذه القسوة، فما أقسى تلك العيون التي لا تتعاطف مع بعضها فتبكى أحزان الناس، وحمائم الجــــارة تمضـــى ولا تلوى على شئ، وهو يمضغ تلك

الكلمات الذابلة التي فقدت معناها " ماتت ... متنا " والناس يســــمعون ولا يتأثرون ولا يتعاطفون، ويتمتم شيخ ثلجي الإحساس: أجل يرحمـــــها الله، ويتعجب الشاعر من برودة المشاعر وجمود الأحاسيس، وينتقل إلـــى مرحلة أخرى هى استجداء هذا التعاطف من الآخرين، حتـــى ولـــو كـــان تعاطفا مزيفا، طالما اختفت العاطفة الحقيقية بين بنى البشر .

فلتكن كلمات المجاملة الزائفة "يا شيخ تألم لى " تعاطف معى، تجاوب مع أحزاني، فإن لم تستطع فتظاهر بهذا، إن لم يكن من قلبك فلتكن كلمـــة من شفتيك وليست من قلبك وصميم وجدانك"صعد حتى من شفتيك الأه" ثـم يدين الشاعر روح العصر الجامدة الخالية من التعاطف " ما أقسى قلبـك ما أقساه، ويعود الشاعر من دفن الأم وهو منفصل عن الكون غارق فـــى أحزانه، نوافذه وحدها غارقة فى ليل مصلوب أقتم، ولكن نوافذ الجـــارات راقصة لا تحس بمأساة الشاعر، نوافذ الجارات راقصة بســـتائر بيضـــاء يلاعبها الريح، وقد هم الشاعر أن يصرخ فى تلك النوافذ طالبا منها بعض التعاطف، ولكن تجربته السابقة مع هذا الشيخ الثلجي الإحســـاس جعلتـــه يحجم، كاد يصيح فى تلك الستائر الراقصــــة :- ألا تبصـــرن ســـتائرنا سوداء ؟ ألا ترون ما نحن فيه من حزن ؟ بعضا من حزن، فالبيت جريـح.

ويصرخ الشاعر فى نهاية قصيدته، رافضا هـذا الجمـود، وذاك الخـواء العاطفي والتباعد والتنافر فهو يبدو فى زحمة كل الناس وحيدا، بين بنـــى البشر، الكل سيلقى هذا المصير، نحن لسنا بدعا في هذا الأمر الكل يباب، الكل يباب

" أمى ماتت " !!

لكن حمائم جارتنا تمضى عنى

مثنى مثنى

وأنا أتحسى كلمات ذابلة الوجه بلا معنى !!

ماتت ... متنا !!

ويتمتم شيخ ثلجى الإحساس :

أجل .. يرحمها الله !!

يا شيخ تألم لى

صعّد حتى من شفتيك الآه !!

ما أقسى قلبك .. ما أقساه !!

ونعود مع الشفق الغارب

أطلال جدار منهار !!

ضيعنا الكنز وعدنا نبكى الأطفال !!

الأفق بليد !!

والليل الجاثم فوق الأرض وفى أحنائى ألف بليد !!

يا عجبالى ...

إني أبدو فى زحمة كل الناس على الدرب وحيد !!
في قلبي الذابل من همس الظلمات الغائمة فحيح !!
وصدى من هول المأساة ذبيح !!
وتلوح نوافذنا غرقى فى ليل مصلوب أقتم !!
ليل تتلوى فيه بلا نبض أبدا روح المأتم !!
لكن نوافذ بيت الجارات هناك ...
ترقص ذهلى ...
بستائرهن البيضاء اللاعبة على صدر الريح !!
فأكاد أصيح :
يا كل ستائرهن ألا تبصرن ستائرنا سوداء ؟
بعضا من حزن ....
فالبيت المطرق فى حضن المأساة النازفة جريح !!
هل نرقص فى أوج المأساة ؟؟
لكن الريح .. وعرس الريح ...
ونوافذ بيت الجارات ...
ترقص ذهلى !!
وكأن علينا قد كتبت مأساة الموت !!
وكأن عليهم أن يحيوا ليزفوا أعراس الموت !!
يا كل نوافذ قريتنا !!
يا كل نوافذ عالمنا !!

أبدا لن تفتح نافذة بعد الصيحة !!

الكل يباب

الكل يباب [1]

ونلمح من قول الشاعر :

إنى أبدو فى زحمة كل الناس وحيد

عمق المأساة التى نعيشها فى هذا العصر، بعد أن اختفى التعاطف مع الآخرين، وسرت البرودة فى أعماق العلاقات الإنسانية، وقد وظف مأساته لمناقشة هذه الظاهرة والتأكيد على ضرورة التعاطف فأنا اليوم وأنت فـــي الغد، كل نوافذ العالم حتما إلى فناء .

** التشخيص :-*

وهو ملمح أخر في قصيدة الرثاء قامت به الشاعرة نازك الملائكة في رثاء أمها، وكما تقول هي في تبرير ذلك " قد يكون الشعر بالنســـبة للإنســـان السعيد ترفا ذهنيا محضا، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة، وقد كـــانت القصائد الثلاث التالية محاولة للتعزى لجأت إليها على إثر وفاة أمي فـــي ظروف محزنة، عانيت منها معاناة خاصة، ولم أجد لألمي منفـــذا أخـــيرا غير أن أحبه وأغنى له) [1] وقد شخصت الشاعرة هذا الحـــزن وغنـــت

---

[1] الإعمال الكاملة : شعر : دكتور محمد أحمد العزب صـــ٦١٧

[1] ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني صـــ٣,٩

له،وجعلته مرهفا هادئا حزينا خجولا،يجرحه النوح ويضنيه العويل.هو فـــي حاجة إلى الصمت والسكون.والتشخيص ليس خاصا بقصيدة الرثاء عنـــــد نازك الملائكة،ولكنها في قصائد أخرى(تصور الربيع شيخا مرحا "ذا ثيـاب خضر ووجه بديع يناديه عشاق الربيع أن ينـــهض مـــن غفوتـــه ليجـــوب الحقول فيمسحها بخضرته ونضرته [٢] وليس التشخيص هو الجديد عنـــــد الشاعرة، وإنما تشخيص الحزن في صورة طفل صغير حزين، وقد كـــان هذا التشخيص مصدر إلهام للشعراء. بعد ذلك (فقد شاعت هذه الصـــــورة عند كثير من الشعراء بعد ظهور قصيدة نازك، وأصبح الحـــــزن طفـــلا، والحب طفلا، وما أكثر القصائد التي كتبها شعراؤنا واستخدموا فيها هــــذه الصورة، ومن هذه القصائد قصيدة معروفة لصلاح عبد الصبور ... وهـــي قصيدة"طفل " وفيها يصور صلاح عبد الصبور قصة عاطفية انتهت إلـــى الفشل،ويختار لهذه العاطفة المنتهية صورة "***طفل ميت***" ويبنى قصيدتـــــه البديعة كلها " على هذا المعنى، وأغلب الظن أن أصل الصورة عند صلاح عبد الصبور هو طفل نازك الملائكة، وقد تأثر بها صلاح واستخدمها بعـــد ذلك بطريقته الشعرية الخاصة [١]

---

[٢] قوافي الحب والشجن:كتاب العربي الثاني والأربعون٥ أكتوبر ٢٠٠٠م صـــ١٨

[١] ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء : رجاء النقاش صـــ٢٠ دار سعاد الصباح الطبعة الأولى سنه ١٩٩٢م

الرثاء والتصنيع :-

قد يفجع الإنسان عندما يوازن بين قصيدة المتنبي في رثـــاء والـــدة سيف الدولة وقصيدة الشاعر في جدته، ليكتشف الجودة الفنية في القصيـدة الأولى أعلى من القصيدة الثانية "فمرثيته في جدته لم تصل فـــي نضجـــها الفنى إلى ما كانت عليه فى والدة سيف الدولة فلم يهتم الشـــاعر بصنعتـــه الفنية فى مرثيته الذاتية قدر اهتمامه بمرثيته أم سيف الدولة) [٢] وأقول قـد يفجع الإنسان عند الموازنة بين القصيدتين لأن الأمر المتوقع هـــو إجـــادة المتنبي في رثاء القريب أكثر من إجادته في رثاء الغرباء، نتوقـــع إجـــادة المتنبي في شعره (في رثاء قريب له، أو فى رثاء من جمعته به صداقـــة وطيدة، وكانت له معه ذكريات استظل فيها بالسعادة، ونعم بآثار الصداقة . وكما قلنا فإن جدة المتنبي هي التي حظيت دون أقربائه بذكرها في شـــعره راثيا لها ومتفجعا عند موتها، فقد كان يحبها وكان حريصا على لقائها بعـد طول غياب) [١]

والرثاء يتسع للحقيقة وحديث العقل أكثر من حديث الخيال [٢]

وقد قلت الصور البيانيـــة عنـد المتنبـــي عندمـــا ســيطر الحـــزن عليه (وواضح أن الصورة البيانية قد قلت بصورة ملحوظة فقدكان الحزن

---

(٢) صورة المرأة في الشعر العباسي د على أبو زيد صـــ٣١٢ دار المعارف سنه ١٩٨٣م

(١) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي د /طه أبو كريشة صـــ١٥٧ الطبعة الأولى سنه ١٩٧٨م

(٢) المرجع السابق صـــ١٥٩

صادقا . ولذلك كان التعبير أقرب إلى الواقع وإلى البساطة لأنه أبلغ مـــن كل خيال، ومع ذلك فإنه حين فرغ من سرد هذا الواقع وهدأت انفعالاتـــه نراه يعود إلى التصوير البيانى....) [٣]

وعباس للعقاد يشير إلى الصحيح والزائف من الشعر، وقـارن بيـن قصيدة ابن الرومى فى رثاء ولده محمد وبين قصيدة ابن نباتة فـى رثـاء ابنه ***واصفا شــعر ابــن نباتــة بــالزائف لوجــود التوريــة والتلاعـب بالألفاظ وذلك فى قوله :-***

قولوا فلان قد جفت أفكـاره   مخايل للخير مرجــــوه
هيهات نظم الشعر منه بعدما   سكن التراب وليده وحبيبه

وهو يصنع تورية بقوله " وليده وحبيبه " إشارة بـالوليد إلـى لقـب البحترى وحبيبه إلى لقب أبى تمام . مشيرا إلى أن مثل هذه المحسنات فـى الرثاء يمزج فيها الشاعر بيــن ألــم الثكـل وعبـث التوريــة والتنميـق (وأنكر منها ما أنكر من رجل أذهب اليه لأعزيــه فــى ولــده يستقبل المعزين بأكل النار واللعب بالبيض والحجر وغير ذلك من ألاعيب الحواة، وأنكر منها ما أنكره من رجل يزوق وسائل النعي أو يكتبها على دعـوات الأفراح، ويخيل إلى أن ابن بناتة هذا كان يتربص بابنه الموت ليلعب فـى مأتمه هذا اللعب الصبياني العقيم) [١] .

---

[٣] المرجع السابق صـ١٦١

[١] ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد صـ١١. بيروت

وقد يمتلك الشاعر القدرة على هذا التصنيع والتلوين، ولا يكون علـى حساب تجربته، والمهم هو هل أحسسنا بهذا التصنع أم لا ؟ والذى لا شـك فيه أن شيئا من هذا التصنع الذى يصل إلى حد التكلف قد جاء فى قصيـدة الرثاء في العصر الحديث، وهو تكلف نحسه ونلمسه فى القصيدة .

فمن ***ذلك :- قول الشاعر :-***

هي الأم سر لست تعرف كنهه وإن خلتها في صورة الدم واللحم
يقولون فانظر رسمها بعد موتها فقلت لهم في الرمس أمي لا الرسم [٢]

فنحن نرى الشاعر قد جاء بالرمس في مقابل الرسم ليجـانس بيـن الكلمتين،والتصنع أو اللعب بالألفاظ ظاهر في البيت كله، وما رأينا أحـدا في الدنيا يعزى إنسانا فيقول له إن الصورة والنظر إليها تغنى عن الأصل، عندك صورتها ففيها الغناء، ولكن الشاعر أتى بالبيت كلـه تكلفـا ولعبـا بالألفاظ وقد أحسسنا بهذا التصنع والتكلف، لا لوجود الجناس وتكلفه، ولكن لأن الشاعر لم يمتلك القدرة على توظيف هذا الجناس فى مكانه بحيث يبدو طبيعيا في موضعه لا نحس بقلقه،وقد جاء البديـع فـي قصـائد شـعراء آخرين، ومع ذلك لم يأت بهذا التكلف، ***ومن هذا القبيل قول الشاعر :-***

يا من نعمت ببرها وحنانهـــا ووجدتها في الحر ظلا ساجيا

---

(٢) الرسالة : صـــ٢,٢٧ من السنه الثالثة سنة سنه ١٩٣٥م المجلد الثاني العدد ١٢٨

لما اختفى مصباح وجهك أظلمت في عيني الدنيا وضقت بمابيا

أشهى الطعام أراه مرا في فمي أنكرت أيامي وعفت حياتيا [1]

وكذلك قول الشاعر :-

إذا ضحكت زهوا إلى سماؤهابكيت الندى في الأرض والبأس والحزما [2]

فمع وجود هذا الطباق عند الشاعرين في " ***الحر والظل*** " و" مصباح وجهك أظلمت "، وأشهى الطعام مرا، وضحكت وبكيت، فإن هذا الطبـــاق وظف لرسم صورة الشاعر قبل موت أمه وبعد موتها فأدى وظيفتـــه دون قلق أو تكلف .

**** المعارضة والتصنع :-***

من شعراء العصر الحديث من رثى أمه بقصيدة ما، فراح يعـــارض شاعرا آخر سبقه في هذا المجال .وعلى سبيل المثال، يحمل الـــبرق إلـــى الشاعر أحمد شوقي في منفاه نبأ وفاة أمه، فيحزن عليـــها حزنـــا شـــديدا ويرثيها ويبكيها بقصيدة اتكأ فيها على المتنبي معارضا إياه . والمفـــروض أن تستغرق الشاعر فى رثاء أمه تجربته تماما وينفعل بـــها فتـــأتي قصيدته من وهج هذه التجربة، ولكنه قـــد (يســـتوحى ذاكرتـــه وينتفـــع بمخزوناتها فهو يحصر نفسه في عمله الأدبي – بين تجربته الطارئة وبين

---

[1] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

[2] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٢

تراثه الذي يتكون من أخلاط ويتجمع من أشتات .. ينساب من بين طوايـا ذاكرته استجابة لحاجته الطارئة دون أن يعرف من أين يأتيه ولا أن يـدرى مصدره [1] . ولكننا نشك آن يقف الشاعر في معارضته عند هـــذا التيـــار الهادئ الذي ينساب من بين طوايا وتلافيف الذاكرة، استجابة لتلك الحاجـــة الطارئة دون وعى من الشاعر أو إدراك. نشك فــــي إخــلاص الشـــاعر لتجربته ومعاناته لها وهو مشغول بالمعارضة ومشـــغول بـــالتقليد، إلا إذا وقف المعارض أمام البحر والقافية والموضوع فقط ولم ينشغل بــــالقصيدة برمتها ولا بمعانيها ولا بمعانيها ولا بطريقة عرضها والبناء الفنى لها ***كمــا فعل عزيز أباظة في رثاء زوجه عندما قال :-***

ذكرتك عند كل جليل أمــر وكل يسيرة فبكيت نفســــي

إذا سكب الصباح فأنت همي وإن سكن المساء فأنت أنسى

جمعت على الهوى طرفي نهاري كأني لم أرع بنواك أمسى [2]

وقد عارض بتلك القصيدة البحتري في وصف إيوان كسري :-

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس [3]

---

[1] المعارضة فى الأدب العربي د / إبراهيم عوضين صــ٦٤

[2] أنات حائرة : عزيز أباظة صـــ٣٢

[3] ديوان البحتري جــ٢ صــ١١٥٢

ومع ذلك لم يتعد تأثر الشاعر بالبحتري . الوزن والقافية ولـــم يؤثـــر على تجربته ولا عاطفته ولا قصيدته - وقد عارض شوقي المتنبي فمـــــاذا فعل ؟

لقد ترسم شـــــوقى خطـــى المتنبـــى فـــى هـــذه القصيـــدة خطـــوة (ويبدو أن شوقي أحس حين وصله نعى أمه بالشبه الكبير بيـــــن ظروفـــه وظروف المتنبى، فكل منهما شاعر يقيم بعيدا عن وطنه وعـــــن أســـرته، وكما خلف المتنبى جدة عجوزا فى الكوفة خلف شوقى فـــى مصـــر أمـــا مريضة، وإذا كان فرح جدة المتنبى بعودة حفيدهـــا أكـــبر مـــن احتمـــال أعصابها الخائرة، فإن أم شوقى لما بلغها إعلان الهدنة وتوقعـــــت عـــودة ولدها طغى عليها الفرح ولم تقو على احتماله فحمت وماتت) [١]

ومن هنا فقد عارض شوقى المتنبى لا أقول فى قصيدة ولكن فى كـل بيت من أبيات قصيدته حتى لتكاد الألفاظ فى كل بيت تتشابه .

---

[١] المعارضة في شعر شوقي د / إبراهيم عوضيين الطبعة الأولى سنه ١٩٨٢ صـــ ١٧٩

فإذا بدأ المتنبى قصيدته بقوله :-

ألا لا أرى الأحداث حمدا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

بدأ شوقى قصيدته بالطريقة نفسها :-

إلى الله من مطعونة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

قال شوقى :-

لك الله من مطعونة بقنا النوى شهيدة حرب لم تقارف لها إثما

وإذا قال المتنبى :-

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى

قال شوقى :-

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى سبيل يدين العالمون بها قدما

وإذا قال المتنبى :-

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

قال شوقى :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقع لى اليوم منها كان أمس لى وهما

(ويذكر المتنبى أثر كتابه فى نفس جدته فتحـــس الصـــدق فـــى تصويـــره واستقبالها للكتاب ودهشتها التى جعلتها تكرر النظر المـــرة تلـــو المـــرة

متفحصة خط حفيدها ولفظه وكأنها تستمد من ذلك ما يمنحها الطمأنينة، ثـم تعود فتلثمه بفيها وتضعه فوق عينيها، ويتكرر المشهد حتى يظـــــهر أثـر المداد فى وجهها. هذه الصورة الحية ما نفخ فيها الحياة إلا صدق الشـــاعر فى عاطفته وواقعيته فى تعبيره . أخذ هذه الصورة شوقى فذكر أثر البشـير فى نفس أمه بحيث لا يكاد يشعرك بأنها فهمت عنه ما ألقى إليها من أنباء، ***فالبشير سقاها النبأ وهى ذاهلة باكية فسقطت بين يديه :-***

سقاها بشيري وهى تبكى صبابة .فلم يقو مغناها على صوبه رسما [1]

وإنما جمدّ هذه الصورة لدى شوقى خلوه من العاطفة التـــى تحقــق للتجربة الحياة . ***والمتنبى يتحسر على مــوت جدتــه فـــى غيبتــه دن أن يودعها ولا يشيعها حتى قبرها فيقول :-***

وما انسدت الدنيا على لضيقها   ولكن طرفا لا أراك به أعمـــــى
فوا أسفى ألا أكب مقبـــــــلا   لرأسك والصدر الذى ملئا حزما

فيترسم شوقي خطاه، ***ويتأسف لموت أمه وحيـــدة دون أن يشـــيعها هـــو وأولاده فيقول :-***

فيا حسرتا ألا تراهم أهلـــــة   إذا أقصر البدر التمام مضوا قدما
رياحين في أنف الولى ومالها   عدو تراهم في معاطسه رغمـــا

---

[1] المعارضة في شعر شوقي :صـــ١٨١

وألا يطوفوا خشعا حول نعشها ولا يشبعوا الركن استلاما ولا لثما

وإذا افتخر المتنبي بنفسه فى قصيدة الرثاء فقال :-

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكمـــــا

ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا لمكرمة طعمـــــا

يقولون لى :ما أنت ؟ فىكل بلدة وما تبتغى؟ ما ابتغى جل أن يسمى

قال شوقي :-

وكنت إذا هذى السماء تخايلت تواضعت لكن بعدما فتها نجمـــــا

أتيت به لم ينظم الشعر مثلـــه وجئت لأخلاق الكرام به نظمـــــا

ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما

ومن هنا فقد جاءت قصيدة الرثاء عند شوقي وقد خلت من العاطفـــة ولم يحلق فيها بل كان مقلدا للمتنبي، (وأقدم على نظم القصيـــدة معتمـدا على النموذج الذي يحاكيه، ظنا منه أن هذا يكفى في إضفاء الشـــاعرية على ما ينظم، بينما هو يضيع ما يعن في ثنايا ذلك من نبضة قـــد تـــأتى مصادفة وهكذا تقضى المعارضة على الـــروح الشـاعرة حيـن تســتبد بالشاعر ويفقد شخصيته في نموذجه، والفارق كبير بين شـــاعر يـــترك الزمام لعاطفته تندمج مع أفكاره، فتبرز أبيات الشاعر حية نابضة وبيـــن

شاعر ينزل المعركة مجردا من العاطفة، ثم يسلم نفســـه إلـــى نموذجـــه مترسما كل خطاه) [1]

ومن هنا فقد طغت المعارضة على قصيدة شوقي فخمدت العاطفة في قصيدة رثاء للأم كان من المفروض أن يحلق فيها إلى ذروة الإجادة

والتوفيق. ولا يتصور الإنسان شاعرا يأتيه خبر وفاه الام وهو فـــي غربته وحيدا منفيا فيروح يرثيها، فيبحث عن شاعر قديم مـــر بالتجربـــة نفسها فيحتذيه ويقيس على مثاله. وإنما الذي نتصوره أن شـــوقي ألجمـــه الحزن وأخر سته الفاجعة، فسكت زمنا حتى خمدت عاطفته فـــراح ينشـــد قصيدة في المناسبة محتذيا أستاذه المتنبي عوضا عن عاطفته التي خمـــدت فى تلك الفترة التي سكت فيها. وهذا التصور إن صح -وأظنه صحيحـــا - كانت المقولة التي قدم بها أحمد الحوفى لقصيدة شوقي في رثاء أمه غـــير دقيقة وذلك في قوله (نظم شوقي هذه المرثية وهو في منفاه بالأندلس علـــى إثر إعلان الهدنة سنه ١٩١٨م إذ كان يعلل نفسه بالعودة إلى مصر ولقـــاء آله والسعادة برؤية أمه. ولكن البرق قطع عليه هذا الأمل حينما نعى إليـــه أمه فحزن أشد الحزن ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المرثية [1]

---

[1] المعارضة في سفر شوقي صـــ١٨٦

[1] ديوان شوقي جــ٢ صــ٥٣٢

فهذه ليست عاطفة الشاعر الكبير بعد ساعة من معرفته بخبر وفـــاة أمه، ولكن الأرجح والأقرب للقبول أنه نظمها بعـــد أن خمـــدت العاطفـــة وهدأت النفس فراح يتكأ على الآخرين .

الأوزان :-

الوزن : هو جوهر الشعر وأساسه، فهو أعظم أركان الشعر وأولاهـا خصوصية،كما يقول ابن رشيق [١]

ومع الاتفاق على أهميه الوزن بالنسبة للشعر،فإن السؤال الذي يترتب على هذا هو : هل يختلف الوزن باختلاف المعنى ؟ وهـــل تحتـــاج كـل عاطفة إلى لون معين من الموسيقى والوزن يضبط هذه العاطفة، أو تصاغ فيه هذه المعاني ؟

لقد أشار ابن العميد إلى هذه الصلـــة بيـــن المعنـــى وبيـــن الـــوزن الشعري، وبين أن من المعاني مـــا هـــو جـــاد أو حـــار، أو جيـــاش أو صـــاخب، فـــلا يـــؤدى إلا بنفـــس طويـــل ولا يلائمـــه إلا الأعـــاريض الطويلة، ومنها ما هو دقيق أو هادئ أو ماجن أو راقص فيجب أن يصـــاغ فى تفاعيل تناسبه.

ولأمر ما قالوا إن الرثاء يحسن جدا فى بحر الطويـــل، ولأمـــر مـــا شاعت الأوزان القصيرة عند المحدثين . ويعلق المرحوم الأستاذ طه احمـد

---

(١) العمدة : جـــ١ صـــ١٣٤

إبراهيم على فكرة ابن العميد بقوله (ولست أدرى أهذه الفكرة من عند ابن العميد أم لها نواة وأصل من عهد الخليل بن احمد) [٢]

ويؤكد الأستاذ طه احمد إبراهيم على العلاقة بيـــن المعنـــى والنظـــم عندما يقول:فمن الأفكار ما هو جاد طويل النفس،له جلال ورهبة، ومثـــــل هذه توضع في بحر له تفاعيل عدة تقبل ما يصب فيها من المعانى.فالرثـــاء والنظرات في الكون وأشعار الشكوى والتألم أحسن ما تكـــون فـــي بحـــر الطويل[١]

وينفى الدكتور إبراهيم أنيس هذه الصلة بين المعنى والوزن مؤكـــــدا إمكانية وجود صلة بين حالة الشاعر وقت الإنشاء وبيـــــن الـــوزن الـــذي يختاره، فاستعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التحيز أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه، فهم كانوا يمدحون ويفاخرون أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم. ويشير إلى المعلقـات التي قيلت في موضوع واحد تقريبا ونظمت من الطويل والبسيط والســـريع والخفيف، ويؤكد على أن الاتفاق فـــي الموضـــوع لا يعنـــى بـــالضرورة الاشتراك في العاطفة، فالحالة النفسية للخنساء حين كانت ترثى أخاها غير النفسية التي تملكت أصحاب المراثي من القدماء فالمعول عليه هـــو حـــال الشاعر وقت الإنشاء، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعـــال

---

[٢] تاريخ النقد الأدبي عند العرب صـــ. دار الحكمة بيروت

(٢)المرجع السابق صـــ١٣٥

النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفـــس وازديـــاد النبضـــات القلبية، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عـــادة إلا في صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد أبياتها عـــن عشـــرة.أمـــا تلـــك المراثي الطويلة فأغلب الظن أنها نظمت بعـــد أن هـــدأت ثـــورة الفـــزع واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر [٢]

وقد توصل صاحب كتاب "***رثاء الأبناء في الشعر العربي***" إلـــى إن فكرة الربط بين الموضوع وبين بحر معين فكرة خاطئة،ولاحظ من خـــلال الإحصائية التي قام بها إلى أن شعراء رثاء الأبناء نظموا قصائدهم علـــى مختلف البحور الشعرية،مع اختلاف النسب في ذلك،كما لاحظ من خـــلال الإحصاء أيضا أن مقولة الدكتور إبراهيم أنيس، إن الشعر وقت المصيبـــة والهلع يتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس وازدياد النبضات القلبيـــة. ومثل هذا الرثاء الذي قد ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عادة إلا فـــي صورة مقطوعة قصيرة، لاحظ أن النصوص تقول غيرذلك.[١]

ويربط الدكتور طه أبو كريشة بين حالـــة الشـــاعر وبيـــن الأوزان المخصوصة عندما يتحدث عن قصيدة المتنبي في وصف الحمـــى فيقـــول ويرتبط بالصياغة في القصيدة الحديث عن التشكيل الموسيقى لـــها، فمـــن ناحية الوزن نرى أن القصيدة من الوافر(مفاعلتن مفاعلتن مفـــاعل) فـــي

---

[٢] موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس صـــ الطبعة الخامسة

[١] رثاء الأبناء في الشعر العربي د/ مخيمر صالح موسى. مكتبة المنار الطبعة الأولى

شطر كل بيت منه، وبحر الوافر من البحور الواثبة المتحفـــزة إن صـــح التعبير، ومن هنا نجده أصلح البحور لكي يصور انفعالات القلق والضيـــق والتبرم تصويرا موسيقيا، إذ إن السرعة في تفاعيله تناسب تقلب انفعـــالات القلق والضيق والتبرم والضيق والتبرم تصويرا موسيقيا، إذ إن الســـرعة في تفاعيله تناسب تقلب انفعالات القلق الشاكي وما يصحب ذلك من تململ وعدم استقرار (٢)

ويشير بعد ذلك إلى إمكانية التغيير في البحر ذاته بما يصيبـــه مـــن زحافات قد يصور انفعاله، أو يقلـــل مـــن هـــذا الانفعـــال وذلـــك حيـــن يقول(ولذلك نرى المتنبي لا يأتي بالعصب في الأبيات التـــي لا يريـــد أن يصور فيها سرعة انفعاله فيلجـــأ إلـــي الموســـيقى البطيئـــة كمـــا تـــرى **ذلك في قوله :-**

يضيق الجلد عن نفسى وعنها فتوسعه بأنواع السقـــــام

حيث جاءت التفعيلة الثانية في الشطر الأول، والأولى فـــي الشـــطر الثاني بدون عصب وذلك لأن نفسه يثقل عليه حين تضغط عليه الحمى،كما أنه يحس بوطأة الحمى على الجلد فتوسعه، وهذا يستلزم إبطاء في الحركـة والتصوير ... أما الانفعال السريع الذي يستلزم موسيقى سريعة فإنه يلجـــأ إلى إدخال العصب في بعض التفاعيل لكي يحقق هذه السرعة (١)

(٢) في ميزان النقد الأدبي صـــ١٣٢ د طه أبو كريشة.القاهرة سنه ١٩٧٦م

(١)في ميزان النقد الأدبي د طه مصطفى أبو كريشة صــــ١٣٢

وهو يشير إلى شئ من الأهمية بمكان، إذ كيف يطوع البحر ليناسب السرعة والهدوء في الوقت نفسه، وهنا تـأتي الزحافات والحذف في تفعيلات البيت أو يأتي الإيقاع الداخلي ليهدأ من سرعة الإيقاع أو يغير من حركته

ويشير الدكتور على على صبح في حديثه عن الوزن إلى أنه يكاد يجمع النقاد قديما وحديثا على أن الرثاء يتناسب معه البحر الممتد والوزن الطويل لأن الامتداد والطول يتفق مع شدة الحزن، ويرى أن كل ما يتصل بالحزن من الفشل والعجز والشعور بالضعف أمام القوة الخالقة والمصيرة للعالم، كل ذلك يلحق بالرثاء، لأن كثرة المادات تناسب الإعياء والاسترخاء الذي يحل بالجسم نتيجة الصدمة الطاغية ويتلاءم مع الفتور الذي يهلهل النفس ويحطم قواها فتلهث بأنفاس حائرة ممتدة ...ومع ذلك يلاحظ على ابن الرومي في الرثاء أنه لا يلتزم هذا المبدأ النقدي بل يخالفه أحيانا، وقد علل لذلك بأن عبقريته في التصوير تستطيع أن تشكل فى البحر الواحد إيقاعات مختلفة، يتناسب كل إيقاع مع معنى يناسبه [١]

ونخلص من أراء السابقين إلى أن المعول عليه ليس هو الموضوع الذي يتحدث فيه الشاعر، ولكن المعول عليه هو انفعال الشاعر بالحدث، ومدى شدة هذا الانفعال أو هدوئه، وذلك في قصيدة واحدة وفي موضوع واحد .

---

(٢)البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر د على على صبح صـ٢٤٤

ومع أن الموضوع هنا واحد وهو رثاء الأم، فقد لاحظــت الدراســة اختلاف الوزن من شاعر إلى أخر بل إن شوقي يبكى جدته بقصيدة مـــن بحر الوافر، ***وقافيتها التاء، مطلعها :-***

خلقنا للحياة وللمـــــــات ومن هذين كل الحـــادثات
ومن يولد يعش ويمت كأن لم يمر خيالـــه بالكائنات [٢]

ويبكى والدته بقصيدة أخرى من بحر آخر وهو بحر الطويل وقافيتــها الميم مطلعها :

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما أصاب سويداء الفؤاد وما أصمـــي
من الهاتكات القلب أول وهلـــــة وما داخلت لحما ولا لا مست عظما [٣]

ليتناسب مع عاطفته صعودا وهبوطا. ولذلك ينبغي أن تـــدرس كـــل قصيدة على حده فالقصيدة تحكمها ظروفها، ولا تحكم القصيـــدة بقوانيـــن مسبقة لم تراع ظروف القصيدة . وقد نظم من بحر الطويل كل من الشاعر أحمد شوقي في رثاء والدته، معارضا المتنبي في رثاء جدته، وكذلك العقاد في قوله :-

لقد كذب الناعي وأنعم بكذبه .. فلا صدق الناعون يوما ولا هموا
فزعت لخطب الموت والموت واحد.. فكيف احتمالي فيك مرتين يا أم [١]

---

[٢] ديوان شوقى جـ٢ صـ٣٩٨
[٣] ديوان شوقى جـ٢ صـ٥٣٢
[١] ديوان العقاد جـ٢ صـ٩١٥ طبعه بيروت

وكذلك الشاعر محمد الهراوى :-

تكشفت الأحداث بعدك يا أمي .فيا طول طول ما أبقى من الحزن والهم (٢)

وكذلك ابن الرومي في رثاء أمه ومطلع القصيدة :-

أفيضا دما إن الرزايا لها قيـــــم فليس كثيرا أن تجود لها بـــــــدم

ولا تستريحا من بكاء إلى كرى فلا حمد ما لم تسعداني على السأم (٣)

وكذلك كشاجم في قوله :-

أبعد مصاب الأم آلف مضجعـــــا وأوّى إلى خفض من العيش أو ظل

سترضع عيني قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعي ومن حملي (١)

ومن بحر الوافر تأتى قصيدة شوقي في رثاء جدته، وكذلك أبو فراس ***الحمدانى في رثاء والدته :-***

أيا أم الأسير سقاك غيث بكره منك ما لقي الأسير

أيا أم الأسير سقاك غيث تخير لا يقيم ولا يسير (٢)

وكذلك المعرى في رثاء والدته :-

سمعت نعيها صمي صمام وإن قال العواذل لا همـــام

---

(٢) الرسالة صـــ٢٢٧ من السنة الثالثة العددة ١٢٨

(٣) ديوان ابن الرومي جـــ٦ صـــ٢٢٩٩ .تحقيق د حسين قاسيا

(١) ديوان كشاجم : صـــ٣٢٨ تحقيق د النبوي عبد الواحد شعلان

(٢) ديوان أبي فراس .صـــ١٦٣ رواية ابن خالويه .دار صادر بيروت

وأمتنى إلى الأحــداث أم يعز على أن صارت أمامي[٣]

ومن تفعيلات بحر الكامل جاءت قصائد الشعراء، ***خليل عبــده مطــران في رثاء جدته :-***

يا ترب عصرك بيتي في رحمة المتعالى
حييت خير حيـــاة وألت خير مـــــــال [٤]

وقصيدته في رثاء أمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظائم النعـم
عشنا زمانا وهى قسمتنا وغناؤنا عن سائر القسم [٥]

وكذلك قصيدة الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا قد كنت يوما من حياتي قاسيــــا
شيعت فيك حنان أمي للثرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا [١]

وكذلك قصيدة ابن سنان الخفاجى :-

أبكيك لو نهضت بحقك ادمع وأقول لو أن النوائب تسمع
لا يغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لمـــودع [٢]

---

[٣] شروح سقط الزند – القسم الرابع : السطر الثاني صــ١٤١٣
[٤] ديوان الخليل جــ٢ صــ٥٥٤
[٥] ديوان الخليل جــ٣ صــ٢٤٧
[١] ومضات فكر ونبضات قلب : إبراهيم عبد الفتاح صــ١١٤

وعلى أوزان بحر الخفيف جاءت قصيدة الشاعر فريد عين شوكة :-

لا تلمني على بكائي وغمي   أي صبر يعين في فقد أمي
أي كنز فقدته في نواهـــــا   أي خسر أصابني أي غم [٣]

وكذلك جاءت قصيدة ابن سناء الملك :-

صح من دهرنا وفاء الحياء   فليطل منكما بكاء الوفاء
وليبن ما عقد تماه من الصبر   بأن تحلا وكاء البكاء[٤]

وتأتي قصيدة البردوني على تفعيلات بحر الرمل :-

تركتني ها هنا بين العذاب   ومضت يا طول حزني واكتئابي
تركتني للشقا وحدي هنا   واسترلحت وحدها بين التراب [٥]

*مقدمة قصيدة الرثاء :-

تنوعت مقدمة قصيدة الرثاء بالنسبة للأم وذلك حسب ظروف إنشاؤها فقد يبدأ الشاعر بمقدمة تناسب الرثاء،يتحدث فيها عن الدهر ومصائبـه وأن المرء لا بد ميت، وكل الناس إلى هذا المصير. ويبدو هذا واضحـــا فـــي قصيدة أحمد شوقي في رثاء جدته، فهو لم يبدأ قصيدته بالحديث عن هـــذه

---

(٢) عصر الدول والإمارات صـــ٧٣٣ د شوقي ضيف

(٣) الرسالة السنة ١٥ سنة ١٩٤٧م عدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

(٤) ديوان ابن سناء الملك :صـــ٦

(٥) ديوان عبد الله البر ودن المجلد الأول صـــ١٣٨

الجدة، ***وانما بدأها بمقدمةٌ من سبعةٌ أبيات تحدث فيها عن الحياة والموت وهو يقول في مطلعها :-***

خلقنا للحياة وللمـــــــــات	ومن هذين كـــل الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كان لم	يمر خياله بالكائنـــــــات
ومهد المرء في أيدي الرواقي	. كنعش المرء بيـــن النائحات
وما سلم الوليد من اشتكـــــاء	فهل يخلو المعمر مـــن أذاةٌ
هي الدنيا قتال نحن فيــــــه	مقاصد للحسام وللقنـــــــاة
وكل الناس مدفوع إليــــــه	كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمــــى	يسهم من يد المقدور آت [1]

هذا هو المقطع الأول من القصيدة، وهو المقدمة التـــي ســـاق فيـــها الشاعر فكرته، ***وهى فكرة تتصل بالرثاء موضوع القصيـــدة إلـــى أن يصل إلى البيت الثامن الذي يخلص فيه للحديث عن جدته بقوله :-***

صلاة الله يا تمراز تجزى	ثراك عن التلاوة والصلاة

سبعةٌ أبيات يتحدث فيها الشاعر عن الحياة والمـــوت، وأن الإنســـان يولد ويعيش ويموت، كأنه لم يولد، ولم يمر خيالـــه بالكائنـــات، ويعـــرج الشاعر على تلك الحياة التي يعيشها الإنسان فيصفها بأنها قصيرة،ويصـــل للتعبير عن قصر هذه الحياة بمهد المرء في أيدي الرواقي ونعش المــــرء

---

[1]) ديوان شوقي جـ٢ صـ٣٩٨

بين النائحات، فالمسافة بينهما قصيرة قصيرة، ***وهي فكرة كثيرا ما تعـاور الشـــــعراء علــــى إبرازهـــا فــــي شـــعرهم، ومـــن هؤلاء محمد توفيق البكري عندما قال :-***

وما أذّن القوم لما أقاموا	صلاة الجنازة يوم الوفاة
وأُذّن للطفل يوم الــولاد	فهذا الأذان لتلك الصلاة [١]

ثم يعود شوق للتأكيد على أن الحياة لم يسلم من أذاها أحد، وإذا كــان الوليد لم يسلم من أذاها، فهل يسلم من عمّر فيها من هــذا الأذى ؟ فــهي الدنيا قتال ونحن غرض للسهام، وكلنا مدفوع لهذا القدر، نــروع ونرمــى بالسهام بيد القدر، ومن هنا يكون قد مهد للدخول في الحديــث عــن هــذا السهم الذي رمى به وهو فقد جدته، وشوقي يبدأ قصيدته في رثـــاء أمــه بمقدمة تطول هذه المرة حتى تصل إلى أحد عشر مـــن الأبيــات تتلوهــا خمسة أبيات يتحدث فيها عن نفسه مع الدهر، ليدخل في الموضوع بعدهــا مباشرة.

وهو يبدأ مقدمة القصيدة بقوله :-

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما	**أصاب سويداء الفؤاد وما أصمي**
من الهاتكات القلب أول وهلـــــــة	**وما داخلت لحما ولا لا مست عظما**

---

[١] محمد توفيق البكري د / ماهر حسن فهمي صـ١٥٩

تو ارد والناعي فأوجست رنـــــــة كلا ما على سمعي وفى كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنب وانـــزوى فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يدمى
طوى الشرق نحو الغرب والماء للثرى إليّ ولم يركب بساطا ولا يمـّـــا
أبان ولم ينبس وأدي ولم يفـــــه وأدمى وما داوى وأوهى وما دمـا
إذا طويت بالشهب والدهم شقـــة طوى الشهب أوجاب الغدافية الدهمـا

والشاعر في هذه الأبيات يبدأ فى إيـراد فلسـفته للمـوت والدهـر ومصائبه فيقول:-

ولم أر كالأحداث سهما إذا جرت ولا كالليالي راميا يبعد المرمـى
ولم أر حكما كالمقادير نافـــذا ولا كلقاء الموت من بينها حتمـا
إلى حيث أباء الفتى يذهب الفتـى سبيل يدين العالمون بها قدمـــا
وما العيش إلا الجسم فى ظل روحه ولا الموت إلا الروح فارق الجسما
ولا خلد حتى تملأ الدهر حكمـــة على نزلاء الدهر بعدك أو علمـــا

والشاعر فى هذه الأبيات يتحدث عن الليالي والأحداث وأثرهـا فـي الإنسان وأن الموت حتم والمقادير نافذة، والأبناء يسلكون طريق الآبـــاء، منذ القدم طريق واحد معروف .

ثم يبدأ فى الحديث عن نفسه، أو على الأصح عن نفســه مــع هــذا الدهر، فقد خبر تصاريف الزمان، ولم يعـد يبـالى بـه كـان نجمـا أم رجما، ولم تعد تغره النعم ولا تؤثر فيه النقم :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقـع لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما
وقد رثّ للنعمان يوما وضــــده فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى

شربت الأسى مصروفةً لو تعرضت . بأنفاسها بالفم لم يستفق غمـــــــا
فأترع وناول يا زمان فإنمــــــا نديمك سقراط الذى ابتلع السمـــــا
قتلتك حتى ما أبالى أدرت لــــــى بكأسك نجما أم أدرت بها رجمـــــا

وإلى هنا وبعد هذه المقدمة الطويلة والطويلة جدا، ***يتحدث عن أمـــه وموتها وتأثير الحدث في نفسه :-***

لك الله من مطعونة بقنا النوى .شهيدة حرب لم تقارف لها أثما [1] .

وترسم الشاعرة وفاء وجدي فى مقدمة القصيـــدة ما قبـــل الحـــدث بلحظات،وهى تجسم لنا الموت بزائر مكروه، راح يتسلل، وراحت ساعات الليل تدق فى تثاقل، وهى تتعثر بين الدقائق والثواني، والأم تعانى سـكرات الموت، وأهات وحشرجة وغيبوبة، وتسلل الموت فى وضح النـــهار وفـــي الظهر، ولو علمت أن الظـــهر يخـــون، ***وأنـــه يشـــارك المـــوت تســـلله ويساعده لسدّت بظهرها كل ثقوب النور :-***

دقت ساعات الليل ثقيلات الخطوات
تتعثر بين دقائقنا وثوانينا
آهات ... حشرجة ... غيبوبة
لكن ما عن لنا أن يأتى زائرك المكروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر

---

[1] ديوان شوقي جـــ٢صـــ٥٣٧

لو أدرى أن الظهر يخون
لسددت بقلبى كل ثقوب النور
لتشبثت بساعات الليل الظلماء [٢]

وهى مقدمة لا نستطيع أن نفصلها عن الحدث، بل هـــى بدايـــة لــه ومختلطة به ومؤدية إليه، بل هى الحدث ذاته فى صورة مجسدة قصصيـة، شأن كثير من الصور فى شعر التفعيلة .

ومن القصائد التى بدأت بمقدمات أيضا، قصيدة نازك الملائكة عندمـا وجدت الألم يعتصرها ويكاد يفتتها ويقضى عليها،فلم تجد من وسيلة سـوى أن تجسد هذا الألم، وأن تصوره، وأن تغنى له، فبدأت قصيدتها بقولها

أفسحوا الدرب له للقادم الصافي الشعور
للغلام المرهف الحس السابح فى بحر أريج
ذي الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج
إنه جاء إلينا عابرا خصب المروج
إنه أهدأ من ماء الغدير [١]

ومع هذه القصائد التي بدأت بمقدمات، فان قصائد كثيرة قد خلت من المقدمات ويبدأ الشاعر بالبكاء مباشرة، أو بذكـــر الحـدث، أو بمخاطبـــة

---

[٢] الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدي صـــ٣١

[١] ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني صـــ٣٫٩ دار العودة بيروت سنه١٩٨٦م

القــبر، *فمثـــلا قصيــدة الشــاعرة عائشـــة التيموريــــــه بـــــدأت بمخاطبة القبر مباشرة :-*

يا قبر فأهنأ بالتي أحرزتهـــــــا هي درّة في الدرج لاحت تسطع (٢)

في الوقت الذي يبدأ الشاعر حسن عبد الله القرشي برفضه أن تكـــون أمه في القبر، *فهي في عمق أعماقه وفي فؤاده لا في التراب :-*

في عمق أعماقي مكانك في فؤادي لا تغيبي
لا في التراب فأنت ومض مشارق وشذي طيوب (١)

ومن الشعراء من يفتتح قصيدته على مشهد يبكى فيه أمه، واللائمــون يلومونه وهو يرفض هذا اللوم فلقد فقد ما يستحق البكاء:-

لا تلمني على بكائي وغمى أي صبر يعين في فقد أمـــي
أي كنز فقدته في نواهـــا أي خسر أصابني، أي غرم (٢)

ومن الشعراء من يفتتح قصيدتــــه وهـــو يخـــاطب اليـــوم الـــذي مـــاتت فيه أمه، *ويطلب منه أن يرحم فؤاده فقد كان يوما قاسيا لأنه شـــيع فيـــه أمه، ووضعها في قبرها ورجع مكلوم الجوانح دامي الفؤاد :-*

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي للثـــرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا

---

(٢) حليه الطراز صـــ٣.

(١) ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني صـــ٢٤٣

(٢) الرسالة السنه١٥ سنه ١٩٤٧ العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

أغلى الكنوز دفنتها في حفرة   ورجعت مكلوم الجوانح داميا [٣]

ومن الشعراء من يلقى بالخبر مباشرة فـــي صـــدر قصيدتـــه وفـــي مفتتحها، وذلك تجسيدا للحدث . ***وذلك كما في قصيدة الدكتـــور محمـــد العزب، حين يبدأها بقوله:-***

"أمي ماتت "

وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا
يا قسوة عين لا تبكى أحزان الناس
" أمي ماتت " [١]

فهي حقيقة لا تحتاج إلى تضخيم، إذ أنه أضخم حـــدث بحقيقتـــه، لا يحتاج إلى تكبير، فهو أكبر مصاب في الحقيقة، ومع ذلك، ومـــع أن مـــا يستتبعه وهو حزن الناس أجمعين هو أمر طبيعي أيضا فإن الشاعر يصنـــع الدهشة من عدم حدوث الحزن من الناس .ومن الشعراء من بدأ قصيدتـــه بـــالحديث عـــن حالـــه بعـــد وفـــاة أمـــه، فقـــد تركتـــــه الأم بيـــن العذاب، ***وخلّفته مع حزنه واكتئابه:***

تركني ها هنا بين العذاب   ومضت يا طول حزني واكتئابي
تركتني للشقا وحدي هنـــا   واستراحت وحدها بين التراب [٢]

---

[٣] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

(١)الأعمال الشعرية الكاملة . دار محمد أحمد العزب صـــ٦١٣

وربما افتتح الشاعر قصيدتـــــه بمخاطبـــة الام والدعـــاء لـــها والحديـــث عنها، ***مثلما فعل الشاعر خليل مطران في رثاء جدته :-***

يا ترب عصرك بيتي   في رحمة المتعالـــــي [٣]

وفى قصيدته لأمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم   وكذا تكون عظائم النعم [٤]

وإذا كانت القصائد قد تنوعت في مقدمتها، فإن الثابت أن كل قصـــائد رثاء الأم لم تأت فيها المقدمة خارجة عن إطار الموضوع وهو الرثاء، بـل جاءت مناسبة له ومتحدثة عنه وملتصقة به، كالحديث عن حكمة المــــوت وفلسفته، والزمان والدهر وما يصنع بالإنسان، وهو ضـــرب علـــى وتـــر الحدث وليس ببعيد عنه.

*خاتمة قصيدة الرثاء :-

وإذا كان مفتح القصيدة وبدايتها يشهد فوران العاطفة عنـــد الشـــاعر ومبلغ تأزمه من الحدث وشده التياعه فيلقى بهذا كله متخففا معبرا عما فـــي داخله فإن الشاعر لا يصل إلى نهاية القصيدة وخاتمتـــــها إلا وقـــد هـــدأ وتخفف من حمله، وعبر عما يعتمل في داخله ويريد أن يختم به قصيدتـــــه فهل يختمها مسلما للقدر، ومسلما بوقوع الحدث فيصوغ أبيات الحكمة بـــأن

---

(٢) ديوان عبد الله البردونى صـــ١٣٨ من المجلد الأول

(٣) ديوان خليل مطران جـــ٢ صـــ٥٥٤

(٤) ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧

هذا هو سبيل الناس كلهم ؟ أم يختمها بالدعاء بعد أن استسلم لوقوع الحدث وصدق به ولم يعد أمامه إلا الدعاء ؟

فمن الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بالدعاء الشاعر أحمد شـــوقي عندما ختم قصيدته في رثاء جدته بالدعاء للنعش لاحبّا فيه بل لأجل جدته ويمدحها بجميل الصفات، فهي سماء المكرمات، وهى كوكب ســقط فـــي التراب وهى أخلاق طيبة دفنت في القبر، ومن ثم فقد راح ينظر إلى القـبر ويغضى ذاكرا حياة تلك الجدة فإذا هي قد مرت سريعا كأنها لحظات :-

لعا للنعش لاحبّا ولكـــن	لأجلك يا سماء المكرمات
ولا خانته أيدي حامليـــه	وإن ساروا بصبري والأناة
فلم أر قبله المريخ ملقـــى	ولم أسمع بدفن النيـــرات
هناك وقفــت أسألك اتئادا	وأمسك بالصفاة وبالصفات
وأنظر في ترابك ثم أغضى	كما يغضى الآبي على القذاة
وأذكر من حياتك ما تقضى	فكان من الغداة إلى الغداة [1]

ومن الشعراء الذين ختموا قصيدتهم بالدعاء أيضا، الشاعر حسن عبد الله القرشي، وذلك بعد أن يصور الحياة بأنها وهم كاذب، وبأننـــا نمشـــي والمنايا تسبقنا، ***نحلم ويعيدنا وهج الحقيقة لليأس والكوارث*** :-

هذى الحياة نعيش عالمها على وهم كـــــذوب

---

[1] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٧

هذى الحياة وثم مسبحنا على اللج الغضـــــوب
نمشى وتسبقنا المنايا في المسالك والـــــدروب
كم ننسج الحلم الجميل ولا نفكر في "***شعوب*** "
ويعيدنا وهج الحقيقة من سنا الحلم القشيـــــب
لليأس يعصف للشقاء وللكوارث والشحـــــوب
رباه ثم وديعة في ظل برزخك العجيـــــــــب

حطها برحمتك القريبة أنت علام الغيوب [١] ومع وجود الدعاء في نـــهاية القصيدة، وهو يعنى أن الشاعر قد سلم بالقضاء ورضيت نفسه بـــأن أمـــه أصبحت في عالم الغيب، وأنها تستحق الدعاء في عـــالم الأمـــوات، فـــإن شعراء آخرين رفضوا الاستسلام لهذا الواقع ولم تهدأ نفوســـــهم وســـيطر عليهم الحدث واختتموا قصائدهم بالبكاء والتحسر على هـــذه الأم، ومـــن الشعراء من فرغ من الأم والحديث عنها وبكائها ثم التفت إلى نفسه مفتخرا . ومن هؤلاء الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بالفخر، الشاعر أحمد شـوقى فى بكاء أمه، فهو يخاطب تلك الأم فى نهاية القصيدة بأنها وإن كـــان قـــد فاتها مـــا كـــانت تأملـــه مـــن مواكـــب، فكفاهـــا هـــذا الشـــعر موكبـــا وحفاوة وتكريما، فهى أم نجيبـــة تضـــرب فـــى ذرى العليـــاء وشـــيمتها التواضع، مع أنها أنجبت أعظم شاعر، لم ينظم الشعر مثله أحـــد، وهـــو كالسحاب كرما والتبر نفاسة

---

[١] ديوان حسن عبد الله القرشي. المجلد الثاني صـــ٢٤٨

لئن فات ما أملته من مواكب فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
رثيت به ذات التقى ونظمته لعنصره الأزكى وجوهره الأسمى
نمتك مناجيب العلا ونميتها . فلم تلحقى بنتا ولم تسبقى أمــــــا
وكنت إذا هذى السماء تخايلت تواضعت لكن بعد ما فتها نجمــــا
أتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لأخلاق الكرام به نظمــــا
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما [1]

ولعل نغمة الفخر هنا التى اختتم بها الشاعر قصيدته، جاءت نتيجـــة حتمية لشاعر فى الغربة، وفى النفى،وبعيد عن أهله وأصحابه فلا بد له أن يستمسك بشىء وسط ضياع كل شئ، ووسط غياب كل شــئ، فـــهو فـــى النهاية لا بد أن يؤكد لنفسه هو أولا، أن الأم إذا كانت قـــد غـــابت فـــهو موجود، وأن ذاته وشاعريته ما زالت موجودة يفاخر بها ويعتز بها.

ولكن من الحق أن نقول إن أبا فراس الحمدانى قد ألـــم بـــالظروف نفسها وابتلى بالغربة والأسر وموت الأم ورثاها وهو بعيد عنها فى ظـــل هذه الظروف ومع ذلك لم يلجأ إلى الفخر لتأكيد ذاته وإنما ختـم القصيـدة وما زال يسيطر عليه الإحساس بالضياع، بضياع كل شئ بعد هذه الأم.

إلى من اشتكى ولمن أناجى إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعية أوقـــــى بأي ضياء وجه استنيـــــر
بمن يستدفع القدر الموقـــى بمن يستنتج الأمر العسيـــر

[1] ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٧

نسلى عنك أنا عن قليـــل إلى ما صرت فى الأخرى نسير[1]

وإن كان من الحق أيضا أن نذكر أن المتنبى قد عاش هذه الظـروف فـى موت جدته وهو غريب بعيد عن بلاده، وقد ختم قصيدته بـــالفخر، فـهل استطاع المتنبي أن يلملم جراحه وأن يتماسك وأن يشـعر بذاتـه ويختـم القصيدة بالفخر، ولم يستطع ذلك أبو فراس ؟ وإذا صح ذلك فهل اسـتطاع شوقي أن يلملم جراحه، وأن يتماسك وأن يفاخر بنفسه فـى مقـابل هـذا الضياع الذي يحس به، أم أنه كان مقلدا للمتنبي وهو يعارضه فقلـده فـى فخره وفى ختام قصيدته بالفخر ؟

ونرى شوقي فى هذا الفخر الذي ختم به قصيدتـه يلاحـق المتنبـي ويسير وراءه حتى ولو لم يكن المتنبي محقا فى ولوج ذلك الميدان [2]

ومـن الشـعراء الذيـن ختمـوا قصيدتـهم بـالفخر أيضـا عبد الله البردونى، ولعل ظروف الشاعر وقد كان مكفوف البصر، وكانت أمه هي التي تقوده وتطعمه وتسقيه وقد أحس بعدها بالضياع والتشتت فلجأ إلى الفخر ليؤكد ذاته ويثبت وجوده ومن هنا يختم قصيدته بقوله :-

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني

(٢) مع ملاحظة أن الدراسة بررت لوجود هذا الفخر عند الشاعر الذى أحس فى غربته بضياع كل شئ فراح يؤكد ذاته بالفخر فى مقابلة هذا الضياع . ينظر المعارضة فى شعر شوقى . د / إبراهيم عوضين صـ ١٨٤ مطبعة السعادة سنه ١٩٨٤م الطبعة الأولى

ها أنا يا أمي اليوم فتـــــــى طائر الصيت بعيد في الشهــــاب
أملأ التاريخ لحنا وصـــــــدى وتغنى في ربا الخلد ربابــــــــى
فاسمعي يا أم صوتي وارقصي من وراء القبر كالحور الكعـــاب
ها أنا يا أم أرتيك وفــــــــى شجو هذا الشعر شجوي وانتخابي [1]

ومن الشعراء الذين ختموا قصائدهم بالبكاء والتحسر والعـــودة إلـــى تذكر تلك الحياة السعيدة التي أصبحت ذكريات يستعيدها فى جلال ويجـــد فى تذكارها راحة، ***الشاعر إبراهيم عبد الفتاح وذلك حين يقول:-***

لك ذكريات أستعيد جلالها فأرى عطاءك كان فوق عطائيا
وأرى حياتك كلها مبذولـــــة عن طيب نفس كى تصون حياتيا
هى ذكريات من حنانك لم أزل أتلوبها الفضل العظيم الباقيـــا
أجد ارتياح القلب فى تذكارها وكأن وجهك لا يزال تجاهيـــــا
تمضى السنون وطيب ذكرك فى فمى وأراه أحلى ما يذوق لسانيــــا

ثم يتحدث بعد ذلك عن الأم بصفة عامة ذاكرا فضلها إلى أن يقول :-

ما من نبوغ يلفت الدنيا له إلا إليها ينتمي متناهيـــــا
إن تلتمس سببا لرفعه أمـــة تبصر مقام الأمّ فيها عاليا [2]

وتنهى الشاعرة نازك الملائكة قصيدتها أو مرثيتـــها الثالثـة لأمـــها بالاستسلام لهذا الحزن الذي شخصته، وغنت لـــه فـــي المرتبـــة الأولـــى

[1] ديوان عبد الله البردوني/ المجلد الأول صـــ١٣٨
[2] ومضات قلب صـــ١٦٦

والثانية، فهو كل ما تبقى لها ولذلك تهبه صلاة مـــن الدمـــوع، ***وتمنحـــه مسكنا دائما في المآقي وتهبه حبا أقوى من النسيان :-***

إنه كل ما تبقى لنا من وجه ضحكاتنا ورجع الأغاني
إن فيه نهاية الطرف الثاني لما هدم الردي من أمان
فوهبنا له صلاة من الأدمع خجلى مهموسة الألحان
ومنحناه مسكنا في مآقينا وحبا أقوى من النسيان [١]

ويوجه الشاعر محمد العزب إلى هذا المجتمع الذي يعيش فيه والـــذي سيطرت عليه الأنانية، وعـــدم التعـــاطف مـــع الآخريـــن، دعـــوة إلـــي التعاطف، وإلى الإحساس بالآخرين، ***فما عند الآخرين اليوم هو عنـــدك في الغد، والكل إلى هذا المصير :-***

ونوافذ بيت الجارات
ترقص ذهلى
وكأن علينا قد كتبت مأساة الموت
وكأن عليهم أن يحيوا ليزفوا أعراس الموت !!
يا كل نوافذ قريتنا
يا كل نوافذ عالمنا
أبدا لن تفتح نافذة بعد الصيحة
الكل يباب

---

[١] ديوان نازك الملائكة المجلد الثاني صـــ٣١٨

الكل يباب [٢]

ويرفض الشاعر فريد عين شوكة البقاء بعد أمه، فهو لا يطيق الحيـاة بعدها ويطلب من الهلاك والردى أن يقبض روحه حتى يلحق بأمه :-

لا أطيق الحياة بعد نواهــــــا ، يا ليت يومها كان يومى
يا عوادي الردى فقدت رجائي فهلمى خذي الحياة هلمي [١]

ويختم العقاد قصيدته في رثاء أمه بالحديث عن هذه القفار التى تلاقى فيها الأهل وطاب المقـــام لـــهم، ويعلـــن أنـــه كـــان يخـــاف الخطـــوب من أجل أمه، أما وقد فقد هذه الأم فإنه لم يعد يخاف الخطوب، وعلـــى أي شئ يخاف؟

فيا هولها من قفار تركت ويا شد ما قد عرت الرجامـــا
تلاقى ذوى ببطن الثرى فأنهم بحيث أقاموا مقامــــــــا
لأجلك كنت أخاف الخطوب فما الخوف بعدك إلا سلاما [٢]

ويستسلم الشاعر محمد الهراوى لدموعه وأحزانه ويختـــم بـــها قصيدته فيقول :-

سأخضع يا أمي لقلبي ومدمعي على رغم ما أسديت من نصحك الجم
وأبكيك بالقلب الذي تعرفينـــه وللدمع شأن غير ذلك في الحكـم [٣]

---

[٢] الأعمال الشعرية الكاملة / د محمد احمد العزب صـــ٦١٧

[١] الرسالة : السنه ١٥ سنه ١٩٤٧م المجلد الثاني العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

[٢] ديوان العقاد جـــ٢صـــ٩١٥ طبعة بيروت

الخيال ورثاء الأم:-

تحتاج العاطفة القوية إلى خيال قـــوى يعلـــن عنـــها ويبرزهـــا ويوضحها. ومع ذلك إذا كانت هذه العاطفة مسرفة ومبالغـــة تحـــول الخيال إلىوهم. والعاطفة في رثاء الأم قوية (وإذا كانت المـــرأة ذات قرابة، فإن الصدق في العاطفة مما يفتح مجال القول، ويدنى الشـــاعر من العبارة المؤثرة الشجية، والصياغة في الرثاء ينبغـــي أن تكـــون ملائمة لعاطفة الأسى والشجن، موحية بألفاظها وصورها البيانية عمـــا في النفس من ألم الفراق) [1]

والخيال بهذه الصورة يعنى الكوة التي نستطيع من خلالها تصويـــر الأشخاص والمعاني وتمثيلها شاخصة أمام من تخاطبه ونستثير مشاعره[2]

ومن هنا فالخيال جوهر الأدب، وهو ليـــس زينـــة كزينـــة الحلـــي والرياش، وإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشيا وتطريـــزا لأدبه، وأن يصبح كالأصداف التي تغر البصر ببريقها دون أن تفضي إلـــى رمز أو دلالة تؤديها [3]

---

(١) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي : د طه أبو كريشه صـــ١٥٦ الطبعة الأولى سنة١٩٧٨م

(٢) النقد الأدبي : احمد أمين صـــ٢٧ الطبعة الرابعة مكتبه النهضة

(٣) في النقد الأدبي : د شوقي صيف صـــ١٧٣ دار المعارف الطبعة الثامنة

لقد أعاد الشعراء تشكيل اللغة وترتيبـــــها لتتوافـــق مـــع عواطفـــهم وأحساسيهم، أو فلتقل: لتستطيع هذه اللغة الجديدة، بهذا الترتيب الجديد نقـل تلك المشاعر والأحاسيس إلينا.

ومن تلك الصياغات في قصيدة الرثاء :-

****الأساليب الإنشائية:-***

تصور الأساليب الإنشائية من استفهام حائر متخبط، ونداء للتجســـيد والإحساس بعدم الفقد، والأمر والتعجب، تشـــكل هـــذه الأســـاليب التـــي استخدمت في غير ما وضعت لها وأعاد الشاعر صياغتها ودلالتها مـــن جديد، جانبا مهما في التعبير في قصيدة رثاء الأم.

ومن هؤلاء الشعراء الذين استخدموا أسلوب الاستفهام الـــذي خـــرج عن معناه ليدل على حيرته من ناحية، وتعجبه من ناحية ثانية وإحساســـه بالفقد،الشاعر فريد عين شوكة عندما ***يقـــول*** : " لا تلمنـــي علـــي بكـــائي وغمي، أي صبر يعين في فقد أمي؟ أي كنز فقدته ؟ أي خسر أصـــابني أي غم ؟ وبعد تعداد هذه الخسائر الفادحة والإحساس بالفقد يلجأ إلـــى البحـــث عما فاته، في استفسارات واستفهامات الغرض منها تصويـــــر مـــا فقـــده الشاعر بفقد أمه، أين مني دعاؤها، بركات تتوالى من السماء وتهمي ؟ أين مني سؤالها عن طعامي وشرابي وعن قيامي ونومي ؟ أين منـــي حنينـــها للقائي؟ أين مني وداعها في رحيلي بالأماني التي تجدد عزمي؟ أين منـــي لقاؤها في إيابي بالتهاليل حين أهتف باسمي ؟ أين مني صدق الفداء إذا ما

مسنى فى الحياة أيسر سقم ؟ أين منى نفس أسر إليها فرحتى أو شـــكايتى من ملم (١) وهذه الاستفهامات الحائرة التـــى تكشــف عـــن حالـــة الفقــد والضياع، *عكستها أيضا أبيات الشاعرة جميلة العلايلى عندما تقول :-*

العيد عاد ولم تعــودى فأين ساقيــــــة الورود

بل أين من كانت توالى الطير من حب الحصيد

بل أين. أين وأين يا أمى وكم لك من مــــــزيد ؟ (١)

وهى تعدد أيضا تلك الأيادى التى فقدتها بفقد أمها، وعندمـــا تنتقــل الشاعرة إلى عنصر آخر تترك هذه الاستفسارات إلى صياغـــة أخــرى. *وتلفت أنظارنا الشاعرة وفاء وجدى إلى أن موت الأم فجّر فـــى ذهنــها استفسارات عديدة وأسئلة حيرى عن هذه الأحزان ووجودها :-*

أجلت الأسئلة الحيرى

وجمعت الكلمات المتناثرة على الشفتين

كلمات تعييها الالأم

ترهقها أن اسأل كيف وأين

ويثير الصمت العاتى فى الأعماق سؤالا

لم هذا الحزن يعشش فينا ؟

لم هذا الحزن ؟ (٢)

---

(١) الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

(١) نبضات شاعرة : جميلة العلايلى صـــ٣٠

(٢) الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدى صـــ٣١

وموت الأم عند الشاعر خليل مطران جعله يلقى بهذه الأسئلة التـــي يعرف إجابتها سلفا وهو يريد أن يشعرنا أنه لم يعد شئيا بعد أمه، لقد تناثر وتلاشى،ولم يعد هناك من سبب يدعــو إلــى المجــالدة والمكافحــة فــي الحياة، ***أو بذل القوة والسعى :-***

ماذا أنا ؟ ولمن مكافحتي ؟ وعلام بذلي قوتي ودمي ؟ [1]

ويشير عبد الله البردوني في استفهامه إلى فقده لظلها الحــاني، ***فقــد أضحى بعيدا عنه بعد فقد هذه الأم:-***

أين منى ظلها الحاني وقد ذهبت عنى إلى غير إياب [2]

وقد يلجأ الشاعر إلى استخدام النداء، نداء من هي غير موجودة، وقـد ماتت فينادى عليها عبورا بمرحلة الفقد وتأبيا عليها ورفضا لها.

وذلك واضح في قصيدة الشاعر حسن عبد الله القرشي :-

مثواك يا أمـــــاه لا في ظلمة الحدث الرهيب

ها نحن يا أماه أيـــ تام بمائدة الخطـــــوب

أماه هل تصغين ؟ ما عودتني صمت الغريب [3]

وكذلك في قصيدة الشاعر عبد الله البردوني :-

---

[1] الديوان جـــ٣ صـــ٢٤٧

[2] ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني صـــ٢٤٣

[3] ديوان عبد الله البرد وني : المجلد الأول صـــ١٣٨

آه يا أمي وأشواك الأســــى تلهب الأوجاع في قلبي المذاب
ها أنا يا أمي اليوم فتـــــي. طائر الصيت بعيد في الشهـــاب
فاسمعي يا أم صوتي وأرقصي. من وراء القبر كالحور الكعـــاب
ها أنا يا أم أرثيك وفــــــي. شجو هذا الشعر شجوي وانتحابي [٤]

وكذلك في قصيدة خليل مطران:-

واحرّ قلبا يا أميمـــة أن تمضى ويمضى السعد من أمم [١]

وفى قصيدة الشاعر محمد الهراوى :-

تكشفت الأحداث بعدك يـــا أمي فيا طول ما أبقى من الحزن والهم
الله يا أماه ما أنا بـــــــالذي تعود أن يقوى على الحادث الجهم
فإن قلت يا أماه أغناني اسمهـــا عن الأب والأبناء والخال والعـــم
سرى لي يا أماه طيفك في الكرى. فغاب خيـــال الأم عن ذروة الأم
سأخضع يا أمى لقلبي ومدمعــــي على رغم ما أسديت من نصحك الجم [٢]

وهذا هو العقاد يبكى أمه بقصيدة يخاطبها فيها مناديا عليها، ***متأبيــا على الغياب والفقد قائلا :-***

فراقك يا أماه لـــم احتسب لــــه بغتة أو نذيرا ترامى [٣]

---

[٤] ديوان عبد الله البرد ونى :المجلد الأول صـــ١٣٨

[١] ديوان خليل مطران : جـــ٣ صـــ٢٤٧

[٢] الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧

[٣] الأم فى الأدب : فتحي الابيارى صـــ٢٨

ولذلك ومن أجل التأكيد على وجود تلك الأم وحضورها رأينـــا هـــذا النداء الشجي يتخذ عنوانا لقصيدة الشاعر فريد عين شوكة "*أمي*" وقصيدة محمد الهراوى *وأماه*" وقصيدة مختار الوكيل "يا أم" ويكتب الشيخ ســـيد قطب راثيا أمه في مقال تحت عنوان *أماه*" يبدأ كـــل فقــرة فيـــه بـــهذا النداء " من نحن اليوم يا أماه ؟. نحن اليوم غرباء يا أماه، أماه. قد امتـــلأ حسي إرهاصا بالكارثة قبل وقوعها.٠٠٠ أماه.٠ من ذا الذي يقص علــــى أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب، أماه. ***عندي لك أنباء كثيرة.***

ثم يختم مقاله مرددا :-

أماه.٠٠ أماه.٠- أماه.٠٠ [١]

وكذلك مقال "*أماه*" للآنسه أمينة قطب التي تردد فـــي كـــل مقطع منه:-

أمي.٠٠ أمي.٠٠ أمي.٠٠ [٢]

وكذلك حسن القرشي بعنوان لقصيدته "أماه"

وينادى : أماه : هل تصغين [٣]

وتنادى الشاعرة وفاء وجدى على أمها، بالصفات التى كانت تتمتـــع بها فى حياتها :-

---

[١] الرسالة : العدد ٣٨١ صـــــ١٦٠٢

[٢] الرسالة : العدد ٣٨٢ صـــــ١٦٢٩

[٣] ديوان حسن عبد الله القرشي المجلد الثاني صـــ٢٤٣

يا وشوشة العصفور على صدر الفجر

يا نفحة طيب علوية

يا منحة من أعطانا فيك الرحمة والحب (٤)

وفى بعض الأحيان لا يستخدم الشاعر أداة النداء، بل يخـــاطب الأم مباشرة، وذلك يدل على تناسى الفقد، ***ومحاولة تمثل الأم حية حاضرة فـــي ذهن الشاعر على الأقل :***

ورحلت كأنك ما كنت لنا

عشا للأفراخ المهجورة

وكأنك ما كنت لنا

دفئا يتسلل عبر ليالينا المقرورة

ورحلت كحلم بدده صبح مغتر

وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب (١)

فالشاعرة هنا ترفض أن يكون الحديث بضمير الغـــائب،ترفـــض أن تقول وفقدنا حين فقدناها...، أبدا هى ليست غائبة، وإنما هــــى حـــاضرة تخاطبها، وتحكى لها، والعقــاد يســتخدم ضمــير الخطــاب أيضـــا فـــي قصيدته، ***ويرفض الحديث عنها بضمير الغائب :-***

خلا الكون منك فماذا أرى من الكون بعدك إلا ظلاما

---

(٤) ديوان : الرؤية من فوق الجرح صـــ٣٢

(١) المرجع السابق صـــ٣٣

فيا هولها من قفار تركت	**ويا شد ما قد عرت الرجاما**
لأجلك كنت أخاف الخطوب	**فما الخوف بعدك إلا سلاما** [٢]

ومع ذلك وجدنا بعض الشعراء يتحدثـون فـي قصـائدهم بضمـير الغائب، مكثرين من استخدام الفعل الماضي، كتجسيد لهذا الفقد، وإحسـاس بهذا الألم، رافضين العزاء والتأسي والتصبر، مجسدين المصيبـة، بـاكين عليها راثين لها،صارخين بالألم من أجلها، ومن هؤلاء ***الشاعر إبراهيـم عبد الفتاح عندما يقول:***

أغلى الكنوز دفنتها في حفرة. ورجعـت مكلـوم الجـوارح باكيـا

ومع ذلك ينتقـل الشـاعر متجـاوزا هـذه المرحلـة فـي نهايـة القصيدة، مخاطبا أمه

مناجيا لها، متحدثا معها :-

يا من نعمت ببرها وحنانهـــا.	**ووجدتها فى الحر ظلا ساجيا**
لما اختفى مصباح وجهك أظلمت.	**فى عينى الدنيا وعفت حياتيا**
كم كنت أغضب فى الحياة فإن بدا.	**لى وجهك البسام أبسم راضيا**
أنا لست أنسى منك رأيا صائبـــا	**.ألفى له ما كنت قبل رائيـــا**
من غير علم تنطقين بحكمـــة	**كالوحي كالإلهام يشرق هاديا**
كم كنت أسأل فى حياتك مـــا الذى.	**أهدى إليك لكى يبين ولائيـــا**

[٢] الأم في الأدب : فتحى الإبيارى صـ٢٨

أى الهدايا ترتضين أزفهـــــــا. لك كي أكون على الجميل مجازيا

والآن لا أهدى إليك هدية. إلا دموعا - لا تجف - جواريا [1]

بل إن الشاعر ليترقى فى هذا القرب من أسلوب الخطاب، كأن تلـــك الأم ماثلة حية يخاطبها وتخاطبه وتسمع كلامه، يترقى فى هذا القرب وهذا الإحساس إلى مرتبة أخرى هى مرتبة الحوار، ***وفيها يجــــرى الشـــاعر حوارا مع أمه :-***

أيحس قلبك بارتياح عندمـــا آتى ضريحك مستمدا داعيا ؟

أيفيض قلبك بالحنان كعهدنا بحنانه أم صار قلبا قاسيـــا ؟

ثم يجيب الشاعر سريعا قبل أن تنطق الأم، ***رافضا أن يعرف قلبـــها القسوة أو الجفوة ونافيا أن يقل برّها على مر الأيام:-***

حاشا لبرك أن يقل على المدى حاشا لقلبك أن يرى متجافيا

إنى أكاد أمس نبض فؤادهـــا في قبرها إن جئت أشكو حاليا [2]

وربما كان الشاعر غريبا وقت الفاجعة، فانعكس ذلك على قصيدتــه وجاء الحديث عن تلك الأم بضمير الغائب تجسيدا لهذا الفقد، ***وذلــك فــى قصيدة شوقي :-***

سقاها بشيري وهى تبكى صبابة. فلم يقو مغناها على صوبه رسما

---

[1] ومضات فكر ونبضات قلب :صـــ١١٥

[2] المرجع السابق صـــ١١٥

أست جرحها الأنباء غير رفيقــة	وكم نازع سهما فكان هو السهمــا
تغار على الحمى الفضائل والعلا	لما قبلت منها وما ضمت الحمــى
أكانت تمناها وتهوى لقاءهــا	إذا هي سماها بذي الأرض من سمى
آلمت عليها واتقت ثمراتهـــا	فلما وقوا الأسواء لم ترها ذمـــا
فيا حسرتا ألا تراهم أهلّـــة	إذا اقصر البدر التمام مضوا قدمـــا
رياحين في أنف الولى وما لها	عدو تراهم في معاطسها رغمـــا
وألا يطوفوا خشعا حول نعشها	ولا يشبعوا الركن استلاما ولا لثما [1]

وهكذا ترى التعبير بضمير الغائب وقد سيطر على القصيـــدة كلـــها إحساسا بالغربة وغياب تلك الأم، وتجسيدا لهذا الفقد الذي ابتلى بـــه مـــع غربته.

ومن هنا فقصيدة رثاء الأم يمتزج فيها الإحساس بـــالفقد وتجســيده فيتحدث الشاعر بضمير الغائب، معبرا بالفعل الماضي عما فقده وضـــاع منه، ويتمزج ذلك مع لهفته على الإحساس بأمه ووجودهـــا ورفضـــه أن تكون قد غابت رغم الموت،فيخاطبها ويحدثها وينادى عليـــها ويحاورهـــا معبرا بالنداء وبضمير المخاطب وبالحوار أحيانـــا. ومـــن هـــذا المزيـــج المتناقض في قصيدة الرثاء – رثاء الأم- يطلعنا الشاعر على ما يعتمل في داخله من أحزان، وترديه بين اليأس والأمل،والتصبر والتماسك أو الـتردى في وهدة الأحزان.

---

[1]) ديوان شوقي جـــ٢ صـــ٥٣٢

وعندما يتحدث الشاعر عن أمه،وكيف كانت،فإنه يستعين في وصفـها بالتشبيه وقد وصف الشعراء أمهم بالكنز، فهم ضيعوه ودفنوه في التراب

شيعت فيك حنان أمي في الثرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا (١)

وكذلك في قصيدة الدكتور محمد العزب:-

ونعود مع الشفق الغارب

أطلال جدار منهار !!

ضيعنا الكنز وعدنا نبكى كالأطفال !! (٢)

وكذلك في قصيدة فريد عين شوكة :-

أي كنز فقدته في نواهـــــا أي خسر أصابني أي غرم (٣)

ووصف الشعراء أمهم بأنها درة، وبأنها نعمة كبرى :-

يا قبر فاهنأ بالتي أحرزتهـــا هي درة في الدرج لاحت تسطع (٤)

ومطران يصف أمه بالنعمة العظيمة :-

يا نعمة عظمت فلم تـــــدم وكذا تكون عظائم النعــــــم (٥)

---

(١) ومضات فكر ونبضات قلب :صـــ١١٤

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة : دكتور / محمد احمد العزب صـــ٦١٦

(٣) الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

(٤) حليه الطراز صـــ٣٠

(٥) ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧

وبموت الأم تتحول تلك الحياة إلى ذكريات حلوة يشبهها الشعراء بتشبيهات مختلفة ***فهذه الذكريات تتهادى كحبيب الرؤى عند الشاعر فريد عيـــن شوكة :-***

ذكريات في خاطري تتهادى   كحبيب الرؤى بأروع حلم [1]

وتلك الذكريات تشكل راحة للقلب عند الشاعر إبراهيم عبد الفتاح:-

هي ذكريات من حنانك لم أزل   أتلو بها الفضل العظيم الباقيا

أجد ارتياح القلب في تذكارهـــا   وكأن وجهك لا يزال تجاهيا [2]

ويشبه البردونى آثار الصفو هذه بخيالات الشباب فيقول :-

خلفتني أذكر الصفو كمـــــا   يذكر الشيخ خيالات الشباب [3]

ويشيع التشبيه في تصوير حياة الأم، كما في قصيدة "البرد ونى" :-

هدهد ت كفاك رأسي مثلمـــــا   هدهد الفجر رياحين الروابي

وسواقي النهر تلقى لحنهـــــا   ذائبا كاللطف في حلو العتاب [4]

وفى قصيدة خليل مطران :-

يبكيك نسل كثيـــــــــر   أنجبته للمعالـــــــــــــــي

بين الكهول وبين الشباب والأطفال

:-

---

[1] الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧

[2] ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤

[3] ديوان عبد الله البرد ونى : المجلد الأول صـــ١٣٨

[4] المرجع السابق صـــ١٣٨

وأنجم وشمـــــــــــوس من عفة وجمـــــــــال (٠)

فهو يشبه هؤلاء الرجال والفتيان بالأهلة والبدور، وهـــؤلاء النسوة بالأنجم والشموس، هذا النسل الكثير الذي أنجبته جدته، ويشبه حالـــه بعـــد موت الأم، فعزه كالذل، والإثراء كالعدم (١)

ويشبه إبراهيم عبد الفتاح تلك الأم بالأيكـــة، وبـــالروح، وبالأنبيـــاء وبقلب الكون ونبراس يضيء شعاعه،وهى كالربيع، و مزنة من السماء

الأم مثل الأنبياء رسالـــــــة وكجندهم في الصالحات تفانيـــا
الأم نبراس يضيء شعاعـــه سبل الحياة فليس يترك داجيـــا
الأم عين لا تنام مع الدجـــــــى إن بات ليلك ساهرا أو شاكيـــا
هي من سماء الحب أكرم مزنة سقت الثرى فنما وطاب مجانيا
هي كالربيع كسا الحياة جمالها وأجل منه على الحياة أياد يا (٢)

ويشبه سيد قطب أمه وهى ترعاهم بالطير الذي يعشش على أفراخـــه وبأنهم ما زالوا فراخا زغبا في حاجة إلى رعايتها " والعش الـــذي خلفتـــه ستظل فراخه زغبا مهما امتد بها الزمن، لأن يدك الرقيقة لا تمسح ريشـــها وتباركه "(٣) .

(٠) ديوان خليل مطران جـــ٢ صـــ١٣٨
(١) ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧
(٢) ومضات فكر ونبضات قلب صـــ١١٤
(٣) الرسالة : العدد ٣٨١ صـــ١٦٠٢

ويشبه فريد عين شوكة محيا هذه الأم ببدر التمام

وهـــي تسـعى إلـــى دون اقتــدار بمحيــا كأنــه بدرتـــــم

ويصور حديثها بأنه كالشهد:-

والحديث الشريف يقطر كالشهد د بريئا مــــــن اغتياب وذم

ويصور كتمانها للسر فيشبهه بشيء ألقيته في الخضم :-

ثم تمضى الأحداث والسر خاف فكآني ألقيته في خضـــــم [٤]

ويستعين الشعراء في تصويرهـــم للأســى والحــزن بالاســتعارات والمجازات والكنايات وغـــير ذلــك، فــالبردونى يكنــى عــن المــوت بقوله"*حاصد العمر*":-

ودعاها حاصد العمر إلى حيث أدعوها فتعيا عن جوابى

ويستخدم الاستعارات والمجازات في قوله :-

حيث أدعوها فلا يسمعني غير صمت القبر والقفر اليبــاب

أه يا أمي وأشواك الأسى تلهب الأوجاع في قلبى المــذاب

كم هدتنى يدك السمر إلى حقلنا فى الغول فى قاع الرحاب [١]

وفى قول الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-

إن يحبس الدمع الحياء أساله من جاء بالقول الجميل مواسيا [٢]

---

[٤] الرسالة : العدد ٧٤٧ صــ١١٨٧

[١] ديوان عبدا لله البردونى : المجلد الأول صــ١٣٨

[٢] . نمات فكر ونبضات قلب صــ١١٤

وفى قول العقاد :-

وأفحمنى فيك خطب النعى   ى وفى غيره ما شكوت الفحاما [٣]

وفى قول الهراوى :-

سرى لى يا أماه طيفك فى الكرى   فغاب خيال الأم عن ذروة الأم[٤]

وفى قول : وفاء وجدى

دقت ساعات الليل ثقيلات الخطوات
تتعثر بين دقائقنا وثوانينا
أهات حشرجة غيبوبة
لكن ما عن لنا أن يأتى زائرك المكروه
يتسلل من ثقب في نافذة الظهر [١]

ومع شيوع الخيال بهذه الصورة في قصيدة رثـــاء الأم، فقـد كـــان للحقيقة دورها في هذه القصيدة، بل ربما جاء أسلوب الحقيقة على بسـلطته صادقا ناصعا مشعا، فيجسم المصاب مستمدا من بساطته وواقعيتـــه قيمـــة حقيقية تجعله أبلغ من كل خيال. فإذا كان للخيال أثره القوى في الصـــورة،

---

[٣] الأم فى الأدب : فتحى الإبيارى صـــ٢٨
[٤] الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧
[١] الرسالة : العدد ١٢٨ صـــ٢٠٢٧

وسحره البارع في النفس، فإن الأثر الجمالي قد يوجد فيها مـــن الجمـــال والروعة ما يقوم مقام الخيال (٢)

وقد صاغ الشعراء حقيقة الموت مجردة من كل خيال فكـــانت أكـــثر وقعا وأشد تعبيرا،ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد العزب عندمايقول

" أمي ماتت "

وأحدق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا !!

يا قسوة عين لا تبكى أحزان الناس !!

أمي ماتت !!

لكن حمائم جارتنا

مثنى مثنى !!

وأنا أتحسى كلمات ذابلة الوجه بلا معنى !!

" ماتت . . . . متنا " !! [٣]

هكذا يكرر الشاعر تلك الحقيقة الفاجعة***أمي ماتت***" "***ماتت . . متنا***"

ويلتفت ليرى جمود الناس والمشاعر والحركات، وقد جاءت الجملـــة الخبرية على بساطتها مصورة للفجيعة اعظم تصوير.

---

[٢] الرسالة : العدد ١٢٨ صــ٢٠٢٧

[٣] الأعمال الشعرية الكاملة :شعر الدكتور محمد احمد العزب صــ٦١٣

وكذلك قول الشاعر عبد الله البردوني في قصيدته :-

تركتني ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزني واكتئابي [١]

تركتني، وهي التي كانت تطعم وتسقى وتأخذ بيده لتهديه الطريق، ومع ذلك تركته، وتركته ها هنا، بين العذاب، وتركته ومضت، هذه الكلمات البسيطة الخالية من أي خيال، هي اكبر دلالة من أي خيال، بعد أن تعرف ظروف هذا الابن المكفوف البصر الذي لا يستغني عن تلك الأم

العاطفة :-

إذا كانت عاطفة الحزن هي التي تسيطر على قصيدة الرثاء بشكل عام، فإن رثاء الأم لا يحتاج إلى تصنع لهذا الحزن، ولا تشتت العاطفة، وإنما تسيطر على قصيدة رثاء الأم عاطفة الحزن الصادقة غير المفتعلة، إلا أن عواطف أخرى وأحاسيس مغايرة تتداخل مع هذه العاطفة، لا لتشتتها وتزيفها، بل لتعاضدها وتؤازرها، وذلك وفقا لظروف إنشاء كل قصيدة من ناحية، وظروف موت الأم من ناحية أخري، وظروف وقت إنشاء الشاعر للقصيدة من ناحية ثالثة. ولولا هذا التنوع والتلون داخل إطار الحزن لأغنت مرثية واحدة عن غيرها من المراثى[١]

---

[١] ديوان عبد الله البرودونى : المجلد الأول صـ١٣٨

[١] يشير احمد الشايب فى " الأسلوب " إلى أن قراءة مرثية أبي العلاء لبعث عاطفة المعرى التى أثارها، لن تسد لابن الرومى أو أبي تمام أو شوقى ذلك لأن عاطفة المعرى من طراز خاص به. أصول النقد الأدبي : احمد النهضة المصرية الطبعة الثامنة

فالشاعر عندما يبكى أمه تعبيرا عن حزنه وهو شـــيخ كبـــير، يجـــد سؤالا من الأعين المحيطة به عن سر هذا البكاء وقد بلغ مبلغ الرجال، ولم يعد هؤلاء الرجال فى حاجة إلى الأم كالأطفـــال. ولذلـــك رأينـــا هـــؤلاء الشعراء يبررون فى قصائدهم لهذا البكاء وهذا الجزع. وقد أشار العقـــاد إلى هذا التعجب من الناس للبكاء على الأم والشاعر فى هذه السن وفى هذا العمر، فراح يفند مزاعمهم، ***فالشيب لا يعنى تجمد المشاعر والعواطف ولا موت الأحاسيس وعدم التعبير عنها:-***

تعجب قوم لشيخ بكـــــــــى	أكان المشيب لدمعى فطامـــا ؟
وأم لما دون عشر تعـــــــــز	فراقا فكيف لسبعين عاما ؟(١)

إن الأم إذا عاش معها الطفل عمرا قصيرا تعز عليه ويفتقدها ويبكـــى هذه الفترة القصيرة،فكيف يكون حال من عاش معها سبعين عاما هل تهون عليه هذه المعايشة الطويلة ؟ وهل كان المشيب مانعا لدمعه وحابسا لـــه؟. والهراوى يؤكد أنه لا يحس باليتم إلا الكهل، ***فقد هدّ الأسى عزمه :-***

فقدت أبى طفلا فلم أدر ما الأســـى	وأفقدها كـــهلا فـــهدّ الأســـى عزمـــى
سلوى أحدثكم عن اليتـــم بعدهـــا	فإن اليتيــــم الكـــهل أعـــرف بـــاليتم
فيا ليت أيام الحياة وقفن بى	لدى موضعى منها من اللثم والضم(٢)

فهو يؤكد أن جزعه وهو كهل له ما يبرره، بل إن الكهل هو الـــذى يعرف الجزع ويحس به. لقد فقد أباه وهو صغير، فلم يدر ما الأسى، ولـــم

---

(١) شاعرية العقاد : عبد الحى دياب صـــ٢٦٤، وديوان العقاد صـــ٤٥٩ المجلد الأول طبعة بيروت

(٢) الرسالة : صـــ ٢٠٢٧ من العدد ١٢٨

يعرف طعم الحزن، ولم يذق اليتم، وعندما فقد أمه وهو كهل هــدّ الأســـى عزمه وهوى ركنه، والشاعر عمر بهاء الدين الأميرى يطلب فى قصيدتـــه ألا يعذله، *أو يعتب عليه أحد فى بكاء تلك الأم فقد كـــانت ضيـــاء العمـــر وموئل النفس ومدخر الحياة* :-

يا صحب لا تعذلونى فى البكاء وقد … فقدت أمى فقلبى ليس من حجر
أمى وقد كانت ضياء فى دجا عمرى … وموئل النفس فى الجلى ومدخرى [١]

والشاعر إبراهيم عبدالفتاح يؤكد أنه رغم موت أمـــــه وقـــد شـــابت مفارقه، *فقد ارتد طفلا صغيرا يصرخ من الألم* :-

راحت وقد وخط المشيب مفارقى … فرأيتنى كالطفل يصرخ باكيـــا [٢]

وهكذا نرى تفرع وتشقق عاطفة الحزن إلى عنـــاصر أخـــرى تمـــد العاطفة الرئيسية بزاد لا ينفذ من تأكيد هذا الحزن وتقويتـــه وقـــد تكـــون الغربة والإحساس بالضياع دافقا للتشبث بما بقى مع الإنسان فيدفعه ذلـــك إلى الفخر بنفسه وبتلك التى ماتت، وهو ما نراه فى قصيدة احمد شـــوقى عندما نفى إلى الأندلس وعاش بعيدا عن وطنه، ومجده وجاهه، ثم نعيـــت اليه أمه، فراح يتماسك ويتماسك ولم يستطع، ولم يجد إلا الفخـــر مـــلاذا يستند عليه. وقد ارجع كثير ممن كتبوا عن شوقى وجود عنصر الفخر فـــى قصيده الرثاء، إلى معارضته أو تقليده للمتنبى وأبى العلاء، وقد أدى وجود عنصر الفخر إلى فقر فى عاطفته (وبعد فإننا نستطيع أن نقول إن قصيـدة

---

[١] الرثاء فى الشعر العربى د محمود حسن أبو ناجى منشورات دار مكتبة الحياة الطبعة الثامنة

[٢] ومضات فكر ونبضات قلب صـ١١٤

شوقى أصيبت من أول الأمر بفقر عاطفى دفع شوقى إلى محاولـــة ســـتره فكانت تلك الحكم الهزيلة، والمفاخر المسرفة)(٣) فالمعارضة هـــى التـــى جعلته يقلد مـــن يعارضـــه، وأصـــابت قصيـــدة الرثـــاء بـــهذا الخـــواء العاطفى، ويشير الدكتور شوقى ضيف إلى أبيات الحكمة التى يبـــدأ بـــها شوقى قصيدته والتى ينحاز فيها عن الندب والبكاء وبث اللوعة إلى التفكير فى الحياة والموت، وان دنيانا لحظات قصيرة مـــلأى بالأوصـــاب والالأم ويسترسل فى هذا العنصر الإنسانى حتى يخرج القصيدة من حيز الرثـــاء الشخصى إلى حيز إنسانى عام، يجد فيه كل مواطن، بل كل عربى ســـلوته وعزاءه، وما يساعده على أن يصرع حزنه وشقاءه وأوجاعه النفسية، ***كأن يقول فى رثاء جدته :-***

ومهد المرء فى أيدى الرواقى   كنعش المرء بين النائحات

ولا ينسى الدكتور ***شوقى ضيف*** أن يشير إلى تأثر شـــوقى بـــالمتنبى وأبى العلاء، وذلك ***بقوله*** :-"***وليس هـــذا العنصـــر فـــى رثـــاء شـــوقى جديدا فى العربية***"، فهو موجود من قديم، ووسعه المتنبى، ثم انتهى به أبـــو العلاء إلى الغاية فى مراثيه إنما الذى نلاحظـــه أن شـــوقى اســـتغل هـــذا العنصر فى رثائه،ولم يفته استغلاله إلى ابعد الحدود حتى يعمق فى قرائـــه إحساسهم أو قل حتى يخاطب أعماق نفسياتهم، وهو يسلك فى هذا العنصـــر حكما كثيرة مقلدا أستاذه المتنبى [1]

---

[3] المعارضة فى شعر شوقى د إبراهيم عوضين صـــ١٨٥ مطبعة السعادة الطبعة الأولى

[1] شوقى شاعر العصر الحديث د شوقى ضيف صـــ١٥٣ دار المعارف الطبعة الثامنة

وتفرع عاطفة الفخر عن الرثاء أمر طبيعى سلكه الشعراء فى القـــدم عندما دعت الحاجة إلى ذلك،عندما أحسوا بالضيـــاع والتشـــتت فراحـــوا يتماسكون ويلوذون بالفخر فى محاولة للتمسك بما بقى لهم، من هؤلاء فـــى القديم أبو العلاء المعرى فى رثاء أمه، وكذلك المتنبى فى رثاء أمه أيضـــا وفى العصر الحديث نجد الشاعر احمد شوقى كما مر بنا.

وكذلك نجد عبد الله البردونى، وقد كان مكفوف البصر فلما ماتت أمه وقد كانت تطعمه وتسقيه وتهديه الطريق وكانت كل حياته وعندما مـــــاتت راح يتناثر ويتشتت ***وفى محاولة للتماسك لجأ إلى الفخر فقال :-***

ها أنا يا أمى اليوم فتـــى	طائر الصيت بعيد فى الشهاب
املأ التاريخ لحنا وصدى	وتغنى فى ربا الخلد ريابى(٢)

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الفخر عنصر من عناصر الرثاء، أو متفرع عن عاطفة الحزن، فقد أشار احمد الشايب عند حديثه إلى تنـــوع العاطفـــة كما وكيفا إلى أن الحزن يلبس أحيانا ثوب العبرة أو الشوق أو الشـــكوى أو التأسى والتصبر على الخطب الفادح أو الفخر الذى هو تحد لهؤلاء الذيـــن يعتزون على الدنيا بسلطانهم الطريف، ويصرفون شئون الخلائق بما طـــرأ عليهم من عزة، وكل ذلك حزن عام واحد التيار، مهما تختلـــف مظـــاهره الجزئية الفرعية أو درجته فى القوة[٢]

---

[٢] ديوان البردوني

[٢] أصول النقد الأدبي/ احمد الشايب صـــ١٩٩ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة

وقد يتفرع عن الإحساس بالحزن فرع آخر هو الحــيرة أمــام لغــز الموت، ويروح الشاعر أسير تساؤلات حائرة، يديرها بينه وبين نفســه،ولا يجد لها إجابة،ما سر فقد الأحبة؟ وما سبب غيابهم ؟وما الحكمة من ذلـك ؟

ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد احمد العزب عندما يبكى أمه فيقول:

ويسير النعش على أعناق الناس إلى الوادى الأخر !!
وأنا أتساءل :
ما جدوى أن أحيا أو يحيا الأخر ؟
هذا غدنا
أن يحملنا محمولون !!
أن يبكينا مبكيون !!
أن نعبر هذا الكون إلى كون غامض !!
المؤمن يحيا خلف جبال الموت هناك بلا موت !!
وأنا أتساءل :
ولماذا لا نحيا دنيانا الحلوة فى هذا البيت ؟
ما حكمة أن نحصد من حقل العالم أعناق الأزهار ؟
كى نطعم آلاف الديدان ؟
ما أتفهنا !!
كى يمسى العالم تحت دثار الليل القابض فى صمت ؟
ما أتفهنا !!

لو نملك قلنا للقابع فى أعمق أعماق الجرح :

جادلنا بالحرف.

وأسقط من يدك سكاكين الذبح !!

والشاعر فى شدة حيرته يتساءل، ويصر على أن يثبت هذا فى كـــل مقطع، فهو مجرد تساؤل،وفقط، وهى حيرة وفقط، هو ليـــس اعتراضـــا ولا شكا ولا يقينا، ولكنها مرحلة ما بين هذا وذاك، نتجت عن حيرته أمام فقد الأعزة.والشاعر فى مقطع أخر لا يتساءل وإنما يأخذنا معه، ويجعلنـــا نعيش هذه الحيرة، ونتساءل كلنا أمام هذه اللوحة الحقيقية، حين نشـــارف مقبرة الأسرة، ونلاحظ أنه كان فى اللوحة الأولى يتســـاءل وحـــده"***وأنـــا أتساءل*** " ولكنه فى هذه المرة ومع هذا المقطع يأخذنا معه، لـــم يتســـاءل وحده؟

امقتنعون انتم ؟ أذن فليكن هؤلاء معى " ***ونشارف مقـــبرة الأســـرة*** " ويرسم هذه المقبرة فإذا هى هاوية العدم، وإذا هى فاغرة فاها، جائعة أبـــدا لتلك البراعم الخضراء ويبدا الشاعر أمامنا، وأمامنا جميعـــا فـــى تجربـــة حائرة،ينادى فيها على أبيه،أن يرحب بتلك الأم،وأن يستقبلها ويرجـــوه أن يقوم ليرحب بها، أن يوقد شمعته، أن ينير قبره، ثـــم يناديـــه– تســـمعنى؟ وياله من سؤال إجابته معروفة لنا جميعا ونحن شهود عليه وتتكـــرر فـــى الحيرة ***لفظة*** " أم"تكشف عن تردده بين هذا وذاك بين الشك واليقين، بيـــن الحقيقة والخيال،بين الثابت والمتغير،رحب بـــالضيف القـــادم مـــن وادى

العدم !! أم انك أنت الأخر تحيا خلف متاهات العدم ؟ تســـمعنى ؟ أم مـــا زلت رجاما بين رجامات أخرى؟ أم أنى أتكلم شيئيا طينيا من لغـة الأرض ؟ ويؤكد الشاعر على أنه يتساءل ليعرف،ليرد إلى صوابه، ليـــنزل بـــرد اليقين فى قلبه،إنه لا يشك،ولكنه يريد لينزل اطمئنان القلب. يا أبتـــى هـــم قالوا للموتى إن عبروا،دنيا أخرى، أنا لا أنفى حاشا للفانى أن ينفى حتـــى الأشياء المنفية!!الكنى انشد أن اسمع يـــا ابتـــى صوتـــك مهموســـا،حتـــى مهموسا، فالشاعر لا يبغى الحقيقة واضحة ناصعة، ولكنه يتلمـــس مجـــرد شعاع ضوء، خيط حقيقة،بارقة اطمئنان وتلك الحيرة هى عنصـــــر مـــن عناصر الحزن،لا يمكن أن تنفصل عنه، ***بل أزعم أنها تؤكده وتقويه وتدل عليه يقول الشاعر:***

ونشارف مقبرة الأسرة !!
هاوية العدم الجوعى أبدا لبراعيم الخضرة !!
فأدمدم فى صوت مرّ:
يا ابتى قم رحب بالضيف القادم من وادى العدم
أم أنك أنت الأخر تحيا خلف متاهات العدم ؟
إن كنت سمعت . .
فقم رحب بالضيف القادم يا أبتى !!
قم يا ابتى أرجوك . .
وأوقد شمعاتك !!
رقرق فى الحفرة بعض تهاويل الضوء !!
بعض الألوان على تهاويل الضوء !!

فأنا يخنقنى أن تحيا أمى فى ليل منطفئ !!
تسمعنى ؟
أم ما زلت رجاما بين رجامات أخرى ؟
يا ابنى.. هم قالوا " للموتى إن عبروا دنيا أخرى "!!
أنا لا أنفى..
حاشا للفانى أن ينفى حتى الأشياء المنفية !!
لكنى أنشد أن اسمع يا ابنى صوتك مهموسا !!
حتى مهموسا.. مهموسا !!
يهمى من خلف تخوم الأبدية !! (١)

ومع تنوع عاطفة الحزن بهذه الصورة وتلك الكيفية، فإن عاطفـــة الحـــزن أيضًا تتنوع كما ودرجة، ***فنراه عنيفا حـــادا يرفــض التوقــف أو التأســى والتصبر أو عميقا رزينا هادئا يتأسى ويتصبر :-***

ومن العاطفة الحادة العنيفة قصيدة الشاعر فريد عين شوكة، تلك التى صاغها فى أبيات تزيد على خمسين بيتا لم تخمد فيها عاطفته ولم تهدأ مــن أول بيت إلى آخر بيت، ***يبدأ القصيدة بالتحسر على ما فقده:--***

لا تلمنى على بكائى وغمى — أى صبر يعين فىفقد أمـــــى
أى كنز فقدته فى نواهـــــا — أى خسر أصابنى أى غـــــم ؟

وهو ينهى قصيدته بأنه لا يطيق الحياة بعدهــــا ويتمنـــى أن لوكــــان قدسبقها ومات قبلها، ***ويتمنى فى أخر بيت فى القصيدة أن يـــــزوره الـــردى والموت والهلاك :-***

(١) الأعمال الكاملة شعر دكتور محمد احمد العزب صــ٦١٤

أيها الدمع لاهجرتك حتـــــى ينزف القلب فى انسكابك دمى
أيها الصبر لا عرفتك حتى يستوى فى جوار أمى جسمى
لا أطيق الحياة بعد نواهـــا أه ياليت يومها كان يومـــــى
يا عوادى الردى فقدت رجائى فهلمى خذى الحياة هلمـــى [1]

ومن النوع الأخر الذى نجد فيه عاطفة الحزن هادئة رزينـــة وتـــهدأ وتستسلم فى نهاية القصيدة، ***قصيدة الشاعر خليل مطران فـــى رثـــاء جدتـــه والتى يبدأها بقوله:***

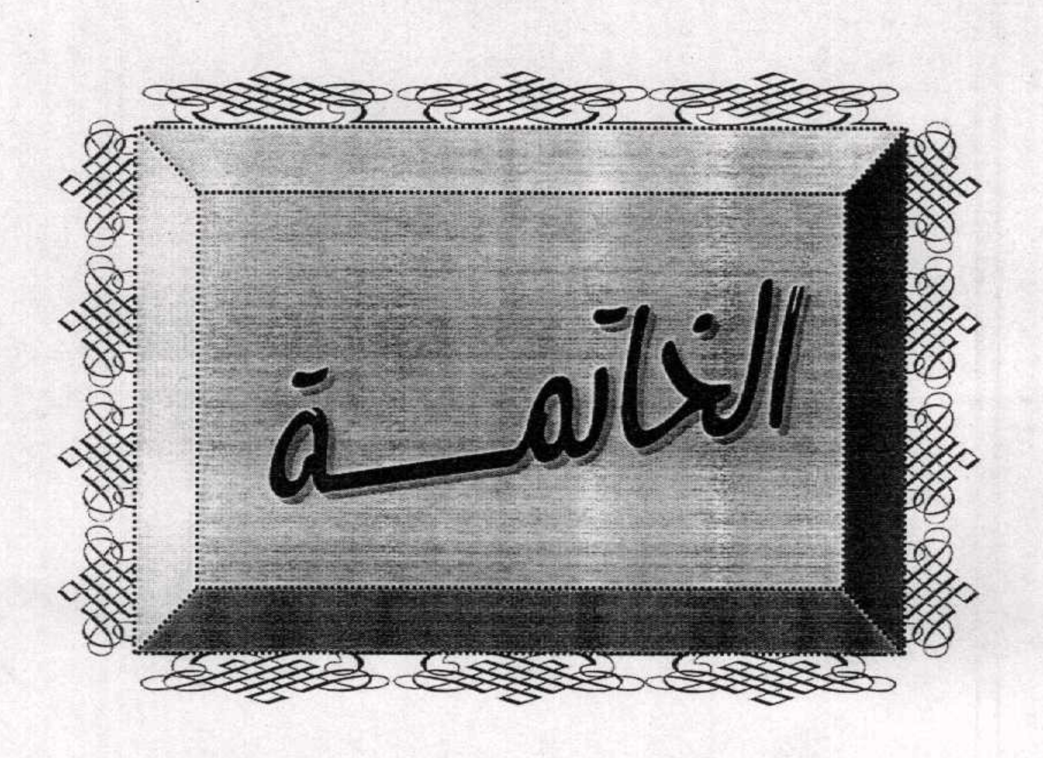
يا ترب عصرك بيتى فى رحمة المتعالـــى
حببت خير حيـــــاة وألت خير مـــــــآل

وينهيها بنفس العاطفة الحزينة المستسلمة ***بعد أن عدد خصالها الكريمة:-***

اليوم أخطرها البين كلها فى بالـــــى
وسلسلتها دموعى على ثراك الغالى[2]

وهكذا نجد تنوع عاطفة الحزن فى قصيدة الرثاء كما وكيفـــا بـــهذه الصورة التى تناولتها الدراسة.

(١)الرسالة : العدد ٧٤٧ صـــ١١٨٧ قصيدة بعنوان " أمى "
(٢)ديوان خليل مطران جـــ٣ صـــ٢٤٧


الخاتمة



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :-

فقد اهتمت هذه الدراسة برثاء الأدباء لأمهاتهم فى أدبنا العربى الحديـث، وإن كانت قد أشارت فى تمهيد سريع إلى الأم فى أدبنا العربى قبل ذلك، وقــد تحدثـت الدراسة عن مدى اهتمام الشعراء بالأم فى حياتها وبعد مماتها، مصوريـــن فـــى عاطفة صادقة دور الأم فى تشكيل حياتهم، ومدى ما أصيبــوا بــه بعــد فقدها، وتصوير هؤلاء الأدباء لتلك العاطفة. وقد كان لهذه الدراسة بعض الـــرؤى المتواضعة يستحسن أن نوجزها فى تلك الخاتمة.

* ترجح الدراسة أن بدايات رثاء الأم كانت عند ابن الرومى وليس الصنوبـــرى كما يقول الدكتور شوقى ضيف.

* تؤكد الدراسة على أن بدايات رثاء الأم كانت عند ابن الرومى والصنوبـــرى، وليست عند المتنبى كما يقول فتحى الابيارى.

*هناك من الشعراء من كتب إلى أمه فى حياتها وذلك فى شعرنا القديم والحديـث فمن القديم، نجد الشاعر أبا فراس الحمدانى، يكتب إلى أمه وهو فـــى ســجنه، مؤاسيا وداعيا إلى الصبر والتأسى بالخنساء. وفى العصر الحديث نجد روحيــة القلينى،وطاهر زمخشرى، وعبد الرحمن العشماوى ومحمد عبد الغنى حســـن، ومما يدحض تلك القولة التى تدعى أن الشاعر لم يعرف أمه فـــى شــعره إلا راثيا.

*لم ينس الشاعر أمه بعد قصيدة الرثاء،وانما ظل يكتب عنها بعد مماتها

وبعد رحيل جسدها،ومن هؤلاء الشاعرة جميلة العلايلى،والدكتور محمـــد أحمـد العزب٠

*تناول الشعراء فى قصيدة الرثاء قضايا عديدة عكست هموم العصـــر، ومن ذلك قصيدة الدكتور محمد احمد العزب التى صـــورت عـدم المشـاركة الوجدانية من الآخرين والتى أصبحت ظاهرة تغلف حياتنا الحديثـة، وتكشـف خواء العاطفة عند الناس، وكذلك قصيـدة "*دمعـة علـى سماعة الهاتف*" للشاعر *عبد الرحمن صالح العشماوى* تلك التى تصـور الاغـتراب والسفر والبعد عن الأم.

*شغلت قصيدة الرثاء بموضوع واحد وهو رثاء الأم وخلت من المقدمات.

*تميزت العاطفة فى قصيدة الرثاء للأم بالصدق ولذلك خلت من التصنع

*رثى الأدباء أمهاتهم شعرا ونثرا،وجاءت قصيدة الرثاء فى قوالب مختلفة.

* قلد المحدثون القدماء فى الدعاء للأم بالسقيا.

*تفاوت الشعراء فى وقوفهم من الحدث ما بين جزع وهلع ومـــا بيـن تماسـك وتصبر

* لجأ الشعراء إلى التشبيه عند الحديث عن الأم وفضلها، ولجأ الشـعراء عنـد الحديث عن الفقد إلى المجازات والاستعارات وغير ذلك.

* تنوعت عاطفة الرثاء كما وكيفا، صعودا وهبوطـا، وفخـرا وتأسـيا وحزنـا وتساؤلات حائرة٠

* تشتت الشاعر وتبعثره وانطلاقه من الحزن إلى الفخر إلى التأسي إلـــى غـير ذلك، لايعنى تشتت العاطفة بقدر ما يعنى فـــوران هـــذه المشـــاعر وانطـــلاق صاحبها من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى لنقيض، ولكن ذلك لا يخـــرج عن دائرة الحزن ولا يعنى تشتت العاطفة.

*ناقشت الدراسة علاقة البحر بالموضوع وانتهت إلى أن قصيدة رثاء الأم تـــأتى فى بحور مختلفة، وأن البحر الواحد تأتى أوزانه سريعة تارة وبطيئـــة أخــرى لتناسب حدة عاطفة الشاعر أو هدوء تلك العاطفة.

▪ ولذلك فكل قصيدة تعد نمطا مخصوصا يدرس على حدة طبقا لظروف إنشـــاء تلك القصيدة.

*جاءت قصيدة الرثاء نموذجا ملهما للشعراء فى موضوعات أخرى، كطفل نــازك الملائكة فى قصيدة الرثاء، وطفل صلاح عبد الصبور فى موضوع أخر.

*الكبر والشيب لا يعنى جمود العاطفة، ولا عدم التأثر بمـــوت الأم، بـــل أثبـــت الشعراء أنهم يتأثرون بفقدها "***وأم لما دون عشر تعز فكيف بأم لسبعين عامـــا***".

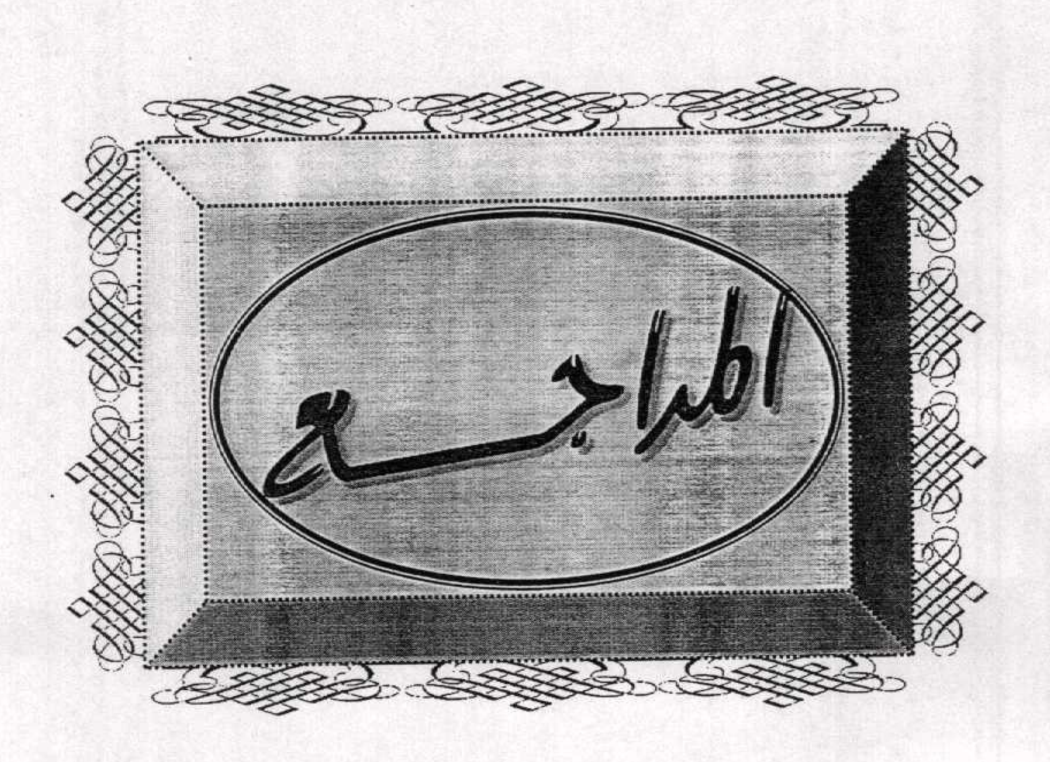
والحمد لله رب العالمين

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

أمين

دكتـــــور

عبد الناصر محمد السعيد


المراجع

المصادر والمراجع

(١) أبو العلاء المعرى د عائشة عبد الرحمن
سلسلة أعلام العرب
(٢) أصول النقد الأدبى ***أحمد الشايب***
مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة سنه ١٩٧٣ م
(٣) الأغانى. الأصفهانى دار العودة بيـــــروت
(٤) الأم في الأدب ***فتحى الابيارى***
الدار القومية للطباعــــــــة والنشــــــــر
(٥) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر
د / على على صبح
المكتبـــــــة الأزهريــــــــة سنه ١٩٩٦ م
(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب
الأستاذ / أحمد طه ابراهيم
دار الحكمــــــــة بيــــــــروت
(٧) ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء
رجـــــاء النقاش
دار سعاد الصبـــــاح الطبعة الأولـــــى
(٨) الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى
د/ طه مصطفى أبو كريشة
الطبعـــــة الأولـــــــى سنه ١٩٧٨ م
(٩) دراسات فى الشعر العربى
محمد ابراهيم أبو سنه
سلسلــــة اقــــــــــــــــرأ
(١٠) ديوان - ابتهالات قلب
روحيـــــــة القلينى
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلاميـــــة

(١١) ديوان– ابن الرومى
تحقيق د / حسين نصار
القاهرة مطبعة دار الكتب سنـــــه ١٩٧٣م
(١٢) ديوان - ابن سناء الملك
تصحيح د / محمد عبد الحق
دار الجيل بيروت سنـــــــــه ١٩٧٥ م
(١٣) ديوان - إبن سنان الخفاجي
المطبعة الأنسيـــــــــــة. بيـــــــروت
(١٤) ديوان - أبو فراس الحمدانى
دار صـــــــــــــادر بيـــــــروت
(١٥) ديوان - احمد شوقى
شرح وتوثيق د / احمد الحوفى
دار نهضة مصر للطبـــــــع والنشـــــر
(١٦) ديوان - الأعمال الشعرية الكاملة
د /احمد محمد العزب
الطبعـــــــة الأولـــــــــى سنه ١٩٩٥م
(١٧) ديوان - إلى حواء
عبد الرحمن صالح العشماوى
مكتبة الأديب. الرياض . الطبعة الأولى سنه ١٤٠٦هـ
(١٨) ديوان - أمـــــى
بهاء الدين الأميرى
(١٩) ديوان - ترانيم الرمال
عبد العزيز محمد النقيدانى
مطبوعات نـــــــادى القصيـــــــــــــم
(٢٠) ديوان - حسن عبد الله القرشى
حسن عبد الله القرشى
دار العــــــــــودة بيــــــــــــروت

(٢١) ديوان - حلية الطراز
عائشة التيمورية
المطبعة العامريـــــــة مصـــــــــــر
(٢٢) ديوان الخنساء
تحقيق الدكتور ابراهيم عوضيين
مطبعة السعادة الطبعــة الأولـــــــــــى
(٢٣) ديوان خليل مطران
خليل مطـــــران
دار مارون عبــــــود بيــــــروت
(٢٤) ديوان الرؤية من فوق الجرح
وفاء وجـــدى
طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٩٨ م
(٢٥) ديوان - سائر على الدرب
محمد عبد الغنى حسن
المكتبة العربيـــة القاهــــرة سنه ١٩٧٤ م
(٢٦) ديوان - شرح ديوان المتنبى
اليـــــازجى
دار صـــــــــادر بيــــــروت
(٢٧) ديوان - شروح سقط الزند
الدار القومية للطباعـــــة والنشـــــــر
(٢٨) ديوان - الشريف الرضى
القاهـــــــرة سنـــــه ١٣٦٨ هـــ
(٢٩) ديوان - الصنوبرى
تحقيق د / إحسان عباس
دار الثقافــــــة بيــــــروت سنه ١٩٧٠ م
(٣٠) ديوان- عبد الله البرد ونى
دار العودة بيروت طبعة أولى سنــــــه ١٩٧٩ م

(٣١) ديوان العقاد
منشورات المكتبة المصريـــــــة بيـــروت
(٣٢) ديوان القروى
رشيد سليم الخورى
الجمهورية العربية الليبية . وزارة الثقافـــــــة
(٣٣) ديوان كشاجم
تحقيق د / النبوى شعلان
مطبعة الخانجى الطبعـــــة الأولـــــــــــى
(٣٤) ديوان لزوم مالا يلزم
أبو العلاء المعـــــــرى
دار صـــــــــــادر بيـــــــــــــروت
(٣٥) ديوان المازنى
ابراهيم عبد القادر المازنى
(٣٦) مجموعة النيل
طاهــــــر زمخشرى
الناشر : تهامه جدة السعوديـــــة سنه ١٩٨٤ م
(٣٧) ديوان نازك الملائكة
نازك الملائكـــــــة
دار العـــــــــودة بيـــــــــــروت
(٣٨) نبضات شاعرة
جميلة العلايلــــــى
الهيئة المصرية العامه للكتـــاب سنه ١٩٨٤ م
(٣٩) ومضات فكر ونبضات قلب
ابراهيم عبد الفتاح
دار الصفا للطباعة والنشـــــر سنه ١٩٩٠ م

(٤٠) رثاء الأبناء فى الشعر العربى
د مخيمر صالح موسى
مكتبـــــة المنــــــــــــــــــار
(٤١)الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات قلب
د محمود حسن أبو ناجى
بيـــــــــروت سنـــــــــه ١٤٠٢م
(٤٢) الرثـــــاء
د. شوقـــــى ضيف
دار المعارف الطبعـــــــــة الرابعـــــة
(٤٣) ساعات بين الكتب
عباس محمود العقاد
منشورات المكتبة المصريـــــة بيروت
(٤٤) شاعرية العقاد
د. عبد الحى دياب
دار النهضـــــــة العربيـــــــــــة
(٤٥) الشريف الرضى حياته وشعره:
حسن جعفر نور الدين
دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنه ١٩٧٢ م
(٤٦) شعر المتنبى قراءة أخرى
د محمد فتوح أحمد
دار المعارف الطبعــــــة الثامنـــــــة
(٤٧) الشعر العربى المعاصر فى اليمن
د. عبد العزيز المقالح
دار العودة بيروت الطبعـــــــــة الثالثـــة
(٤٨) الشعر والشعراء -
تحقيق محمد شاكر

(٤٩) صورة المرأة في العصر العباسي
د علي أبو زيد
دار المعـــــارف سنـــــه ١٩٨٣ م

(٥٠) عصر الدول والأمارات، مصر والشام
د شوقـــــي ضيف
دار المعـــــــارف الطبعة الثامنة

(٥١) العصر العباسي الثاني
د. شوقـــي ضيف
دار المعـــــارف الطبعـــــة السادسة

(٥٢) العمـــــــدة
ابن رشيق
دار الجيل الطبعـــــــة الرابعـــــــة

(٥٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي
د. شوقـــي ضيف
دار المعارف الطبعـــــــة العاشـــرة

(٥٤) في ميزان النقد الأدبي
د. طه مصطفى أبو كريشة
القاهـــــــــرة سنة ١٩٧٦م

(٥٥) في النقد الأدبي
د. شوقـــــــي ضيف
دار المعــــارف الطبعـــة الثامنة

(٥٦) الكامـــــل
المبـــــرد
طبعـــــــة بيـــــــروت

(٥٧) مجلة الرسالة

(٥٨) محمد توفيق البكرى
د ماهر حسن فهمى
سلسلـــــــة أعلام العـــــرب

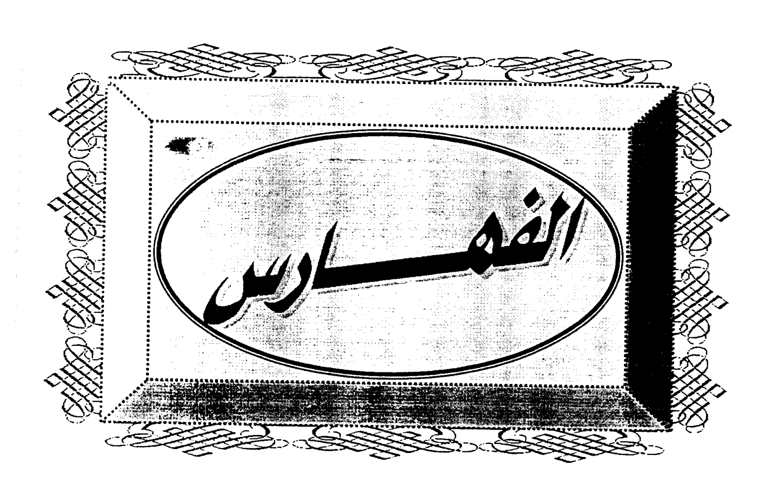
(٥٩) مع المتنبى
د طـــــه حسين
دار المعارف الطبعة الثالثـــــة عشرة

(٦٠) المعارضة فى شعر شوقى
د ابراهيم عوضيين
مطبعة السعادة طبعة أولى سنه ١٩٨٢ م

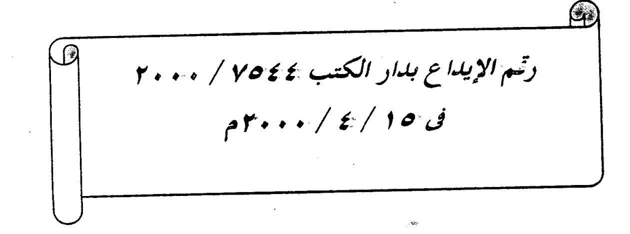
(٦١) من حديث الشعر والنشر
د. طـــه حسين
دار المعارف الطبعــــــــة العاشـــرة

(٦٢) موسيقى الشعر
د. ابراهيــم أنيس
الطبعــــــــة الخامســــــــــة

(٦٣) النقد الأدبى
أحمد أمـــــين
مكتبة النهضة الطبعة الرابعـــــــــة


الفهارس

الفهرس


رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥٤٤ / ٢٠٠٠
فى ١٥ / ٤ / ٢٠٠٠م